الطير الخدارى

حواديت من مصر
حواديت من سوريا
حواديت من السودان



حواديت عربيّة
١

الطير الخدّارى

تأليف

عباس خضر

دار المعارف بمصر
١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر . دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — بالقاهرة ج. ع. م.

مقدمة

كان من أثر حركات التحرر والتخلص من الاستعمار فى البلاد العربية أن شعر الشعب العربى بذاته ومقوماته ، وبدأ يراجع هذه المقومات فى فنونه وآدابه الشعبية ، ويتحسس فيها جذور شخصيته، فيستمد منها ويطور على أساسها نتاجه الأدبى والفنى ، فكانت هذه الحركة أو النهضة «الفولكلورية» التى يهتم بها ويشارك فيها الأدباء والفنانون وترعاها وتعنى بها الدولة فى الجمهورية العربية المتحدة .

ويسعدنى أن أشارك فى ذلك بهذا الجهد المتواضع الذى يتمثل فى هذا الكتاب ، ولست أريد أن أروج له إذا قلت إن القارئ إذ يهتم بقراءة ما ينتجه عباقرة الشعراء والكتاب ، فإنه يجب ألا يكتفى بذلك ، بل ينبغى أن يقرأ هذه القصص التى أبدعتها الجماعات الشعبية وضمنتها أفكارها وفلسفاتها ، وكافحت فيها قوى الشر والطغيان عن طريق هذا الخيال الأسطورى الذى يتوافر فيه الجمال والامتاع الفنى .

إن الشعب — فى هذه القصص وأمثالها — يسخر من الإنسان المغرور المستبد ويهاجم طغيانه ، ويحمى — فى الناحية الأخرى — القيم الفاضلة فى أشخاص الذين يُعتدى عليهم من الناس الطيبين . ويتحمس فى النهاية لانتصارهم على قوى الشر المعادية .

وفن الحواديت ـــ بذلك ـــ يتسم بالتفاؤل ، فهو لا يستسلم لأعداء الخير والإنسانية ولو كانوا من ذوى القوة الخارقة . . وذلك برغم ما كانت تعيش فيه الجماعة من ظروف تتعرض فيها للظلم والعسف ، لأنها دائماً واثقة بنفسها وبانتصار حقها على باطل أعدائها .

ونلحظ فى هذه الحواديت ـــ كما فى غيرها ـــ أنها لا تقصر موضوعاتها وحوادثها على طبقة الحكام ، من سلاطين وملوك وأمراء ووزراء ، بل استمدت كذلك عناصرها من بيئات الشعب المكافح وأفراده العاديين .

وهذه « الحواديت العربية » قد سمعتها من ناس مختلفين ، من الشعب العربى ، فى مصر ، وفى سوريا ، وفى السودان ، وكتبتها وأخرجتها هذا الإخراج .

وهى ـــ وإن كانت تختلف فى الشكل والبناء ـــ تكاد تتحد فى المضمونات الإنسانية والروح العامة ، بل هى تتحد كذلك فى بعض الشكليات .

تسمى فى مصر « حدوتة » وأصلها العربى الفصيح « أحدوثة »

واسمها الشائع فى سوريا « حكاية » وإن كان يطلق عليها أحياناً فى الختام « حدوته » فيقول الحاكى فى نهايتها :

« توتة توتة ، خلصت الحدوته . منيحة ولا مفلوتة ؟ إجا منيحة طعميك قرص صفيحة . . إجا مفلوتة لعلقتك بالتوتة » .

وتسمى فى السودان « حجوة » ولعلها محرفة عن حكاية .

تبدأها الجدة العجوز بقولها :

« حجيتكم ما بجيتكم »

فيرد عليها الأولاد :

« خيرا جانا وجاك »

وتأخذ فى الرواية .

ثم تختم بقولها :.

« تمت وانشمطت فى بطن الصغير فينا . وأنا اتغديت معهم بملوخية ، وكان مغالطنى شم إيدىّ »

وجميعها — فى مصر وسوريا والسودان — تبدأ غالباً هكذا :

« كان ياما كان . ولا يحلى الحديث إلا بذكر النبي عليه السلام » .

أو هكذا : « كان فى غابر الأزمان وسالف العصر والأوان »

وتختم الحدوتة فى مصر ، وكذلك فى غيرها ، هكذا :

« وعاشوا فى التبات والنبات وخلفوا صبيان وبنات »

أو هكذا : « توتة توتة فرغت الحدوتة »

والفتى الأول فى الحواديت المصرية اسمه « الشاطر حسن » والفتاة الأولى « ست الحسن والجمال » .

ويأتى الشاطر حسن وست الحسن — أحياناً — فى القصص السورية والسودانية .

واسم البطل الغالب فى الأحاجى السودانية «ابن النمير» والفتاة «فاطمة السمحة».

ونلاحظ أن الحواديت المصرية يغلب عليها الطول نسبياً، وخيالاتها واسعة، وخرافياتها (كالغول والجن ونطق الحيوان والجماد) كثيرة، والحجى السودانية أقل نصيبا من ذلك وهى أدنى إلى الطبيعة البدوية، أما الحكايات السورية فأكثرها يخلو من عنصر الخرافة ويشتمل على غرض تربوى أو مفارقة من مفارقات الحياة.

عباس خضر

حواديت من مصر



سلسلا وأم زبعبع

كانت « سلسلا » مثل أمها . . طيبة ، تحب الناس والأشياء ، لا تكره ولا تحسد ، ولا يحمل قلبها الحقد ، وكان لأم سلسلا بقرة تعتنى بها وتعطف عليها ، وكانت البقرة جميلة الشكل وادعة الملامح ، يبعث منظرها فى النفس الاطمئنان والسلام .

مرضت أم سلسلا مرضاً شديداً ، وشعرت بدنو الموت منها ، فأوصت زوجها « أبا سلسلا» بأن يحتفظ بالبقرة لابنتهما ولا يفرط فيها ، وماتت الأم ، وحزنت عليها سلسلا كما حزن أبوها .

وكانت سلسلا لا تزال بنتاً صغيرة وكانت لهم جارة أظهرت عطفها على سلسلا ، وجعلت تتردد على المنزل وترعى شئونه ، وتخدم الرجل وابنته ، وتقول فى كل مناسبة أن أم سلسلا كانت لها صديقة عزيزة ، وأنها مهما فعلت لابنتها أو زوجها فلن توفى حق ذكراها . .

وكانت هناك جارة أخرى هى «أمنا العجوز » التى جعلت تحث الرجل على الزواج وتقول له إنه لن يجد أحسن من هذه التى تخدمه وتخدم ابنته ، وهى خير من تحل محل أم سلسلا . . حتى قبل الرجل أن يتزوج جارته ، إذ سر منها ولا سيما عند ما رآها تبدى عنايتها بابنته العزيزة .

وولدت زوجة الأب بنتاً أسمتها « أم زبعبع » وسبحان الخالق القادر على أن يخلق الشيء ونقيضه . . فقد جاءت أم زبعبع دميمة قبيحة الشكل ، بقدر ما كان في سلسلا من حسن وجمال . . !

وبدأت زوجة الأب تتغير معاملتها لسلسلا ، وكلما رأت ما بينها وبين ابنتها أم زبعبع من اختلاف كبير ، من حيث الجمال والدمامة ، زاد غيظها وحقدها على سلسلا ، فكانت تأكل هي وابنتها طيبات الطعام وتعطى سلسلا الردئ والفضلات .

ولم تجد سلسلا من تشكو إليه غير البقرة الطيبة ، ذهبت إليها بعظام الدجاجة التي أكلوا لحمها ولم يبقوا لها منها غير هذه العظام ، وقالت :

— انظري يابقرتي يا بقيرتي . . يا تربية نينتي . . ماذا أعطت لي زوجة أبي . . !

وقالت لها البقرة : هات العظم وأنا آكله وأحيله لك دجاجة !

وهكذا كانت تفعل دائماً . . تأخذ الفضلات والأشياء الرديئة التي تعطيها لها زوجة أبيها وتذهب بها إلى البقرة ، فتأكلها وتنزلها لها طعاماً طيباً مريئاً .

وكانت زوجة الأب تلحظ في غيظ وعجب ما يبدو على سلسلا من صحة ونضارة ، على حين ترى ابنتها أم زبعبع هزيلة صفراء برغم ما تخصها به من أطايب الطعام . وذات يوم أعطتها فضلات الطعام

لتأكلها ، فأخذتها سلسلا وذهبت إلى البقرة كالمعتاد . وسارت وراءها زوجة أبيها على أطراف أصابعها لتنظر ماذا تفعل ، فرأت وسمعت وعرفت كل شيء ، فاغتاظت من البقرة غيظاً شديداً ، وحدثت بأمرها أمنا العجوز ، فأشارت عليها أن تدعى أنها حامل وتتوحم وتقول لزوجها : « نفسى فى كبد البقرة » فيضطر إلى ذبحها .

وسمعت سلسلا ما دار بين أبيها وزوجته ورأت عزمه على ذبح البقرة ، فحزنت حزناً شديداً ، وذهبت إلى البقرة وحكت لها وهى تبكى ، فقالت لها البقرة : لا تبكى ولا تحزنى ، وما عليك إلا أن تجمعى عظامى كلها عظمة عظمة بعد أن يأكلوا لحمى وتضعيها فى الليل تحت الشجرة وتغطيها ، وسأعود فى شكل ديك . .

لم تذق سلسلا شيئاً من لحم البقرة ، واهتمت بجمع العظام كلها ، وفعلت كما قالت لها البقرة . ولما أصبح الصباح وجدت تحت الشجرة ديكاً جميلا يحييها صائحاً : كوكو . . . كوكو . .

ولما رأت زوجة الأب سلسلا تزداد صحة وجمالا كلما كبرت ، ورأت ابنتها أم زبعبع على عكسها تزداد قبحاً ودمامة ، فكرت وعزمت على أن تتخلص منها . وتحدثت بذلك مع أمنا العجوز ، فدبرت لها هذه حيلة للتخلص من سلسلا ، إذ جعلتها تتصنع المرض ، وقد خبزت « رقاقا » وجففته ووضعته تحتها فى الفراش ، وكلما تقلبت طقطق . . فتقول لزوجها :

ـــ آه يا عظامى . . عظامى تقرقع . . إنى سأموت لا محالة .

ويحزن الزوج ويلتفت إلى أمنا العجوز مستنجداً ويقول لها :

ـــ يا أمنا العجوز ، ألا تعرفين وصفة لشفاء زوجتى ؟

وتصف العجوز الوصفة . . وهى ثلاث شعرات من رأس « أمنا الغولة » تبخر بها زوجة الأب . وذلك بأن تذهب سلسلا إلى أمنا الغولة وتحضر منها الشعرات الثلاث ، ووصفت لسلسلا منزل الغولة ، وهو قريب .

وكان على سلسلا ـــ إزاء الحاح أبيها ـــ أن تذهب كما أشارت العجوز ، فسارت فى الطريق الذى وصفته لها . وما أن ابتعدت قليلا حتى رأت على جانب الطريق شجرة السيسبان فقالت :

ـــ الله ! ما أجمل هذا السيسبان الطويل !

فرد عليها السيسبان :

ـــ روحى . . جعل الله طولى فى شعرك لا فى جسمك .

ومشت حتى رأت ثمرات التفاح على فروع أشجارها ، فقالت :

ـــ الله ! ما أجمل هذا التفاح الأحمر !

فرد عليها التفاح :

ـــ روحى . . جعل الله حمرتى فى خديك لا فى عينيك .

ومشت فرأت شجر الياسمين وقد تكاثرت أزهاره البيضاء ، فقالت :

ـــ الله . . ما أجمل زهر الياسمين على فروعه النامية !



فرد الياسمين عليها :

ــ روحى . . جعل الله بياضى فى وجهك لا فى شعرك .

وسارت فرحة مستبشرة ، فرآها غراب فجعل يحوم فوقها ، فإذا حادت إلى جانب من الطريق حاد إليها بأجنحته أمام عينيها ، فقالت :

ــ ما أظرف هذا الغراب الأسود !

فقال لها الغراب :

ــ روحى . . جعل الله سوادى فى عينيك وشعرك لا فى وجهك .

ولما وصلت سلسلا إلى بيت الغولة ، قالت لها :

ــ السلام عليك يا أمنا الغولة .

ــ لولا سلامك غلب كلامك لأكلت لحمك ورميت عظامك .

ماذا تريدين ؟

ــ أريد أن أسلم وأطمئن عليك .

ودخلت سلسلا بيت الغولة فرأته قذراً غير منظم تنبعث منه الروائح الكريهة ، فكنسته ورتبته وهى تبدى سرورها وارتياحها ، ثم أقبلت على الغولة وهى تسرح شعرها المجعد ، فقالت لها : هاتى يا أمنا الغولة المشط لأسرح لك . وجعلت سلسلا تسرح شعر الغولة وتقول لها :

ــ شعرك جميل يا أمنا الغولة .

ــ روحى . . جعل الله كلامك كله جواهر .

وأخذت سلسلا ثلاث شعرات من رأس الغولة وهى تسرح لها ،

وأخفتها . ثم تركت الغولة وعادت ، وبينما هى سائرة فى الطريق عرجت على النهر لتشرب وتستريح على الشاطئ ، ثم رأت من بعيد فارساً يمتطى جواده وحوله عبيد وخدم ، فأسرعت قبل أن يراها أحد وتسلقت شجرة على ضفة النهر واختفت بين أغصانها .

ووقف الفارس إلى جانب حصانه تحت الشجرة يصفر له ليشرب . ولكن الحصان رأى خيال سلسلا منعكساً على صفحة الماء ، فأجفل . . فنظر الفارس الشاب ليرى مم أجفل حصانه ، فرأى خيال سلسلا رائعاً فاتناً ، فلم يرفع رأسه إلى أعلى حتى لا تنزعج ، ثم استرق النظر إليها دون أن تشعر ، فراعه منها جمال لم يرَ مثله . . شعر أسود طويل ، ووجه أبيض ، وخدان حمراوان ، . وقوام رشيق ، وخصر دقيق .

وانصرف الفارس الشاب ، وأمر أحد أتباعه أن يراقب سلسلا ، ويتبعها ، حتى يعرف بيتها . وكان هذا الفارس هو ابن الملك .

ولما عادت سلسلا إلى البيت عجبت زوجة أبيها من عودتها سالمة ، وكانت ترجو أن تأكلها الغولة . وزاد عجبها لما رأتها قد ازدادت جمالا ، وكادت تصعق من الدهشة حين شاهدتها تتكلم فتتساقط من فمها الجواهر . . وسألتها عما حدث لها مع الغولة ، فأخبرتها بكل شيء .

أرادت زوجة الأب أن تحقق لابنتها أم زبعبع مثل ما تحقق لسلسلا ، فأرسلتها إلى الغولة لتحضر من رأسها ثلاث شعرات . فذهبت أم زبعبع فى الطريق إلى بيت الغولة . وأول ما رأت شجر السيبان نظرت

إليه فى ازدراء وقالت :

ــ ما هذا ؟ سيسبان ! لماذا هو طويل هكذا بدون فائدة ؟ فرد عليها السيسبان ؟

ــ روحى . . جعل الله طولى فى جسمك لا فى شعرك .

ثم سارت فرأت شجر التفاح فقالت له مثل ما قالت للسيسبان ، فرد عليها قائلا :

ــ روحى . . جعل الله حمرتى فى عينيك لا فى خديك .

وكذلك قالت للياسمين ، وقال لها :

ــ روحى . . جعل الله بياضى فى شعرك لا فى وجهك .

ولما عاكسها الغراب قالت له : ما أثقل دمك يا أسود اللون .. فقال لها :

ــ روحى جعل الله سوادى فى وجهك لا فى شعرك .

ووصلت أم زبعبع إلى بيت الغولة ، وقالت لها :

ــ السلام عليك يا أمنا الغولة .

ــ لولا سلامك غلب كلامك لأكلت لحمك ورميت عظامك .

ثم طلبت الغولة من أم زبعبع أن تكنس لها البيت ، فدخلت وأمسكت المكنسة وجعلت تكنس وتقول : ما هذه الرائحة الخبيثة ؟ ما لهذا البيت يبدو كأنه لم يكنس أبدا !

ولما رأت أم زبعبع الغولة تمشط شعرها تذكرت ما جاءت من أجله فقالت لها : هاتى يا أمنا الغولة المشط لأسرح لك شعرك . ثم جعلت

تمشط الشعر وتبدى اشمئزازها من قذارته وتجعده وتقول :

ـ ما لشعرك هكذا وسخا كأنه لم يغسل أبداً ! ألا تشعرين بهذا القمل الذى يدب فيه ! !

فقالت لها الغولة :

ـ روحى . . جعل الله فمك يقطر سماً . .

ورجعت أم زبعبع إلى أمها فى غاية الشناعة . . شعرها أبيض ، ووجهها أسود، وعيناها حمراوان ، وجسمها طويل هزيل ، وكلما تكلمت سقطت من فمها حية أو ثعبان ! فكتمت غيظها وسكتت .

وحدث فى أثناء ذلك أن جاء ابن الملك إلى أبى سلسلا وخطبها منه ، وأفاض عليهم بالنعم والهدايا .

وفى اليوم المحدد للزفاف فكرت زوجة الأب وقالت فى نفسها : إن الأمير خطب ابنة زوجى ، فلماذا لا تكون هى أم زبعبع؟ أليست ابنته؟ ولا أظن أنه رأى سلسلا ، فلتكن العروس هى أم زبعبع !

وأمرت زوجة الأب سلسلا أن تذهب إلى الفرن وتخبز ، وأخذت أم زبعبع فجلتها وزينتها وألبستها ملابس العروس وطلبت إلى النساء أن يخضبنها بالحناء .

ورأى « الديك » ذلك . . الديك الذى كان بقرة . . فذهب إلى مجلس الأمير فى حفل العرس وجعل يصيح :

ـ كوكو . . . كوكو . . سلسلا قاعدة تحمى ، وأم زبعبع فى المخى . . كوكو . . كوكو . .

دهش الأمير لذلك . . وهجم هو ومن معه على المكان الذى به العروس فرأى أم زبعبع ، فقال : أين سلسلا ؟ ليست هذه سلسلا التى رأيتها على شاطئ النهر ، فأحضروا له سلسلا ، ففرح بها وأخذها فى أحضانه . ثم أمر أن توضع زوجة الأب فى الفرن وهو يقول :

ـ من يحب النبى المختار ، يشعل الحطب فى النار ، فى الكافرة بنت الكفار .

ولولا أن سلسلا شفعت لها وطلبت من الأمير أن يعفو عنها ، فأجاب طلبها ، لأكلتها النيران وراحت فى خبر كان . .

حسن وعبد المعين

كان ياما كان ياسادة يا كرام . . ولا يحلو الحديث إلا بذكر النبي عليه السلام .

كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان . . رجل اسمه حسن . . كان مسافراً إلى بلد بعيد ، يحمل معه زاده من طعام وماء ، وكان يود فى نفسه أن يجد رفيقاً يصاحبه فى السفر ، يتعاونان على الخير والشر ، ويؤنس أحدهما الآخر .

وبينما هو سائر رأى رجلا يسير أمامه على بعد فى نفس الطريق ، فأسرع حتى لحق به ، وسلم عليه وصافحه ، وتحدث معه فعرف أن اسمه عبد المعين وأنه يقصد الجهة التى يقصدها .

طفق الاثنان يسيران ويتجاذبان أطراف الحديث ، فإذا تعبا من السير قصدا إلى ظل شجرة ليستريحا ويتناولا بعض الطعام ، وكان حسن يدعو عبد المعين دائماً إلى أن يأكل من زاده .

استأنف الرفيقان سيرهما بعد الراحة ، وظلا سائرين إلى أن زحفت الشمس إلى الغرب وتوارت وراء الأفق ، وأقبل الليل فلفهما الظلام ، وساد الصمت حتى لم يعودا يسمعان إلا وقع خطواتهما على الرمال . .

ولم يقطع الصمت إلا صوت عبد المعين يقول لصاحبه إنه لا يقدر على مواصلة السير وأنه يشعر بحمى تسرى فى أوصاله ، فأجلسه حسن فى مكان مريح ، وراح يعتنى به ويخفف عنه آلامه ، ثم هبت الريح الباردة وهطلت الأمطار ، فخلع حسن ملابسه وجعل يدثر صديقه المريض ، وبقى هو عارياً ينتفض من البرد والمطر ، ولما هدأ غضب الطبيعة نام عبد المعين ، وظل حسن ساهراً بجواره يرتعش من البرد ، حتى انجلى الليل وبدأت تباشير الصباح تصل إليه من الشرق ثم تنتشر فى أرجاء الوادى ، واستيقظ عبد المعين ، وسأله حسن عن حاله ، فأجابه بأنه فى حال لا بأس بها وأنه يستطيع أن يعاود المسير .

وقطع الصديقان مسافة من الطريق استرد عبد المعين فى أثنائها قوته ونشاطه ، ولكن حسن أخذ يشعر بالضعف فكان يتجلد ويجاهد نفسه ، وكان يشعر بالجوع لأن زاده قد نفد ، إذ كان يطعم منه صاحبه الذى كان يدخر زاده ولا يمسه .

ولما انتصف النهار جلس الرفيقان ليستريحا وجعل عبد المعين يأكل مما معه دون أن يدعو صديقه أو يعطيه شيئاً . . فاضطر حسن أن يسأله بعض الطعام فأبى عبد المعين . . واشتد الجوع والضعف بحسن فألح على صاحبه وتوسل إليه . . وأخيراً رضى عبد المعين أن يعطيه من زاده ومائه على شرط . . .

كان الشرط الذى اشترطه عبد المعين على صديقه قاسياً فظيعاً . .

وهو أن يفقأ إحدى عينيه . . فرفض حسن وعاود الاثنان السير ولكن جهد المسير وإرهاق الجوع استبدا بحسن بالإضافة إلى ما عاناه فى الليلة الماضية من السهر عاريا فى البرد والمطر فخارت قواه وتحقق أنه لابد لابد هالك ، فقال فى نفسه إن العيش بعين واحدة خير من الموت . .

قبل حسن الشرط وأصبح بعين واحدة ، وكان ذلك عند ما ولى النهار وزحف جيش الظلام ، فاستسلم للألم وصار يبكى حظه العاثر وصديقه الغادر ، وسهر الليل يئن ويصعد الزعفرات على حين راح الصديق الغادر فى سبات عميق . .

وفى الصباح عاودا المسير . ولما انتصف النهار وجلسا يستريحان طلب حسن من عبدالمعين أن يمده بشىء من الطعام والماء فرفض ، ولما أعاد عليه الطلب قال له أنه لن يعطيه شيئاً إلا إذا رضى أن يفقأ عينه الإخرى . .

وأيقن حسن أن لا فائدة فى المعارضة والرفض فقبل وقال فى نفسه للمرة الثانية : لأن أعيش أعمى خير من أن أفقد الحياة .

وكان هدف عبد المعين أن يتخلص من حسن بعد أن استنفد زاده وماءه وجرده من كل ما معه ، فلما صار حسن أعمى لا يبصر شيئاً تركه عبد المعين تحت شجرة من الأشجار وذهب ولم يشغل نفسه بأمره ولم يهتم بما سيؤول إليه حاله . .

جلس حسن تحت الشجرة مستسلماً للمقادير فلم يدع له اليأس

مجالا لأن يفكر فى أى شىء . وبينما هو كذلك إذا به يسمع صوتاً لم يسمع فى حياته أرق ولا أعذب منه . . . كان كالموسيقى انبعثت من ضمير الغيب تعزف له لحن النجاة.وأرهف سمعه حتى تبين الصوت واضحاً . . كانت عصفورة فى أعلى الشجرة تقول له :

« كل من ورق هذه الشجرة تعد إليك نعمة البصر» وأكل حسن من ورق الشجرة ولم تمض ثوان حتى ارتد بصيراً يرى كل ما حوله . . ونهض يمشى ثم لاحت له على بعد معالم مدينة قصد إليها وهو فى غاية السرور والنشاط .

دخل حسن المدينة وراح يجوب شوارعها ويخترق طرقاتها ويتحدث مع من يصادفه من أهلها . حتى علم أن للسلطان ابنة رائعة الجمال فى ريعان الصبا قد اكتملت لها المحاسن وكل شىء فيها جميل إلا عينيها .. فهى عمياء فاقدة البصر ، وأن السلطان حزين من أجلها أشد الحزن . لما علم حسن بذلك ذهب إلى قصر السلطان وأراد أن يدخل فمنعه الحراس واستهزءوا به لما قال لهم أنه يريد مقابلة السلطان واعتقدوا أنه مجنون . وظل واقفاً بالباب يحاور الحراس حتى استطاع الدخول .

ولما مثل بين يدى السلطان قال له هذا :

— ماذا تريد أيها الرجل ؟

— أدام الله عزك يامولاى السلطان . علمت أن الأميرة فاقدة البصر .

— وما شأنك بهذا أيها الأفاق . . ؟

ــ جئت يا مولاى لأرد لها نعمة الإبصار . . .

ــ أنت . . ؟ ما هذه الترهات . . ؟ هل أنت طبيب ؟ وكيف يكون طبيب بهذا المنظر الرث وهذه الثياب البالية . . ؟

كيف اجترأت أيها الرجل على الدخول إلى . . ؟

ــ مهلا يامولاى السلطان . . إذا لم أشف الأميرة وأرد لها بصرها فاقتلنى . . اقطع رأسى .

وفكر السلطان فيما قاله حسن وتدبر موقفه : هل يمكن أن يجازف بحياته لولا أنه واثق بنفسه متحقق من مقدرته على ما يقول ؟ ثم قال له :

ــ اعلم أيها الرجل أنك إذا لم تكن صادقاً فى دعواك فستقتل شر قتلة .

ــ وإذا كنت صادقاً يامولاى وأفلحت فى إعادة النور إلى عينى الأميرة ؟

ــ أزوجها لك . . .

وأتى حسن بورقة من الشجرة وأعطاها لابنة السلطان فأكلت منها ... وعاد البصر إليها ؟ فبر السلطان بوعده وزوجها لحسن . وأقيمت الزينات فى القصر وعاشت المدينة ليالى ملاحاً وأياماً كلها أفراح .

وابتهج السلطان بشفاء ابنته وفرح بعرسها ، وأحاط حسن بالعناية والتكريم ، وعاش حسن أياماً كأنها حلم جميل وشعر بالسعادة تغمر كيانه وتعوضه عما لقى فى حياته السابقة من آلام .

* * *

ومرت الأيام وقذفت الأقدار إلى المدينة بعبد المعين . . سمع عبد المعين بقصة حسن وما جرى منه وما صار إليه من نعمة وسعادة، فاغتم لذلك وذهب إلى السلطان وقال له إن هذا الذى زوجه ابنته ما هو إلا شحاذ أفاق كان يأكل من فتات الطعام، وكان ملقى على قارعة الطريق كأنه قمامة. وأنهى كلامه بقوله :

— كيف يحظى سليل الشحاذين والمعوزين وحثالات الناس بسليلة المجد وصاحبة الحسب والنسب وذات الحسن والجمال ؟ !

سمع السلطان هذا الكلام وتذكر حالة حسن ومنظره عندما أتى إليه أول مرة، فداخله الشعور بالندم على إعطاء ابنته لهذا الفقير المنبوذ ! !

ولما شعر عبد المعين بأن كلامه وقع من نفس السلطان الموقع الذى أراده انبرى يعرض عليه طريقة للتخلص من حسن . . قال :

— لقد فكرت يامولاى السلطان فى حيلة تنقذ بها شرف أسرتكم الكريمة من أن ينتسب إليها هذا الدعى الزرى . . دون أن يدرك أحد أن أمراً دبر له .

— هات ما عندك .

— تأمر يا مولاى السلطان بحفر حفرة واسعة عميقة ذات قرار بعيد وتغطى بسطح هش، على أن تكون فى وسط هذا السطح فجوة تبدو كأنها حفرة صغيرة، وتحفر بجانب الحفرة الكبيرة فى عرض الطريق حفرة صغيرة

— وبعد ذلك ؟

ــ وبعد ذلك تعلن ياءولاى السلطان أنك قررت إقامة حفلة سباق يركب فيها حسن حصاناً وأركب أنا حصانا آخر ، ثم يدبر الأمر بحيث يقفز حسن بحصانه فوق الحفرة الكبيرة المغطاة ويقفز حصانى فوق الحفرة الصغيرة .

ــ وكيف يدبر هذا الأمر ؟

ــ تكون الحفرة الكبيرة على الشمال ، والحفرة الصغيرة على اليمين ، وأنا سأركض بحصانى فى الجهة اليمنى فلا يكون هناك مجال لحسن إلا أن يجرى حصانه فى الجهة اليسرى .

ــ فليكن ذلك .

* * *

وكان حسن يخرج وحده فى بعض الليالى ويسير حتى يبلغ الشجرة المباركة التى تشفى أوراقها من العمى ، لأن قلبه قد تعلق بحبها وحب المكان الذى تقوم فيه ، ولم ينس أبداً فضل العصفورة ذات الصوت الموسيقى الجميل ، وكان يصغى عساه أن يسمعها ويستعيد الذكرى السعيدة يوم أن أشارت عليه بأن يأكل من ورق الشجرة كى يستعيد البصر الذى ذهب به غدر عبد المعين .

وفى الليلة التى ستسفر عن اليوم الذى حدد للسباق بينه وبين عبد المعين أحس بشوق شديد إلى تلك الشجرة ، ومنى نفسه بأن يسمع صوت العصفورة الملائكى الساحر . فذهب إلى هناك ، وكانت ليلة قمرية

ساطعة الضياء ذكرته باللحظة التى شعر فيها بالنور يعود إلى عينيه ، وحمد الله على النعمة الكبرى التى يرى بها هذا الجمال العظيم الذى يسكب فى زوحه الطمأنينة والأمن والسلام .

وبينما هو جالس تحت الشجرة يستعيد ذكرى تلك اللحظة السعيدة ويتأمل جمال المكان ينعكس على ضوء القمر الساحر الغامر إذا بالصوت المنغم الحلو . . صوت العصفورة . . يأتى إليه من أعلى الشجرة كأنه وحى من السماء . . يقول له :

ــ احذر الحفرة الشمال . .

ولم يزد الصوت على ذلك حرفاً ، فجعل يسائل نفسه بعد أن أفاق من نشوة الاستماع إلى الصوت : أية حفرة هذه وأين تكون ؟

ولكنه كان يشعر شعوراً عميقاً بالاطمئنان ، لأن هناك عناية خفية علوية ترعاه وتدفع عنه الشرور والمكائد ، فهو يحب الناس ويسعى لخيرهم ويعفو عن إساءاتهم . لهذا أسلم حسن أمره لله وعول فى الوقت نفسه على أن يكون حذراً مما عسى أن يدبره له أهل الشر والغدر .

* * *

وفى الوقت المحدد للسباق ركب كل من عبد المعين وحسن الحصان المعد له ، وابتدأ السباق وعبد المعين يجنح بحصانه إلى اليمين . . ولمح حسن الحفرتين فى عرض الطريق ، فتذكر فى الحال تحذير العصفورة فلكز الجواد فى جنبه فأسرع وسبق عبد المعين وشد العنان جهة اليمين

فكان أمام الحفرة اليمنى وقفز فوقها وجرى فى أمان . وكان من نتيجة هذه الحركة أن حاد حصان عبد المعين إلى اليسار فوقع به فى الحفرة الكبيرة وهوى إلى القرار السحيق . .

دهش السلطان مما حدث . . ونادى حسن وقال له : أتعرف هذا هذا الشخص ؟ فقص عليه حسن قصته معه . .

ثم أمر السلطان بإخراج عبد المعين من الحفرة ، فأخرجوه منها وهو على وشك الموت وأتوابه إلى السلطان ، وكان حسن حاضرا ، فقال عبد المعين لحسن فى صوت متحشرج : « سامحنى يا حسن ! »

ولم يستطع أن يزيد على ذلك ، فقد لفظ أنفاسه الأخيرة . وعقدت الدهشة لسان السلطان وهو يسمع حسن الطيب القلب يقول لصاحبه :

سامحك الله يا عبد المعين . . .

الإخوة الثلاثة

فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان كان يعيش أب وأبناؤه الثلاثة : أحمد الأكبر ، وعلى المتوسط ، ومحمود الأصغر ، فى كوخ على مقربة من مزرعة صغيرة يزرعونها برسيما وشعيراً من أجل الجاموسة التى يملكونها والتى تنتج لهم اللبن فيبيعونه ويشترون بثمنه ما يحتاجون إليه من طعام وكساء .

خرج أحمد كالعادة بالجاموسة إلى حقل البرسيم ، وربطها لتأكل ، فإذا ما نفد ما أمامها نقل لها الوتد حتى تبلغ غيره فتأكل وتشبع ، وظل هكذا يفعل طول النهار ، حتى إذا غربت الشمس أخذ الجاموسة عائداً إلى الكوخ ، وهو يشعر بالسعادة ، والسرور لأنه يشارك أباه فى كده لتحصيل الرزق وتوفير أسباب المعيشة .

وسأل أحمد الجاموسة قبل أن يعود بها :

— هل أكلت جيداً وشبعت ؟

فقالت الجاموسة :

— لقد امتلأ بطنى حتى إنى أشعر بثقل المشى من كثرة الأكل .

ولما عاد سأله أبوه ؟

ـ هل أكلت الجاموسة حتى شبعت ؟

ـ نعم وامتلأ بطنها ، واسألها إن شئت .

ولما سألها الرجل قالت وهى تتظاهر بالجوع والإعياء :

ـ أتصدق كلام ابنك الذى قاسيت منه العذاب . . . ؟ لقد ربطنى بحبل متين إلى جزع النخلة وجعل يضربنى بالعصا ويمنعنى من أكل البرسيم ، وكنت أشد الحبل لأتخلص من الضرب حتى كدت أختنق ، ثم عدت معه وأنا أترنح من التعب والألم .

فاغتاظ الفلاح من ولده واشتد غضبه ، وكاد يقتله وهو يضربه ، ثم طرده من البيت وهو يصيح به :

ـ اخرج من بيتى ، ومن الآن لن تكون ابنى ولن أعرفك ما دمت حيا .

وحاول أحمد أن يدافع عن نفسه ويوضح الأمر لأبيه ، ولكن أباه كان قد ملكه الغضب فلم يستمع لقوله ، فلم يسعه إلى أن يخرج من البيت قائلا فى نفسه : أرض الله لخلق الله .

وفى اليوم التالى أرسل الفلاح ابنه الثانى « على » بالجاموسة إلى الحقل ليطعمها ، وأوصاه بأن يهتم بها كى يعوضها ما فقدته أمس . . فذهب على بالجاموسة ، وصنع لها ما صنع أحمد ، وسألها فى آخر النهار كما سألها أخوه ، فأكدت له أن بطنها قد امتلأ حتى لم يبق به فراغ لمزيد من البرسيم أو غيره .

ولكن لما سألها أبوه جعلت تولول وتقول :

ـ أين الرفق ؟ أين العطف ؟ يا ليتنى لم أذهب مع أحد من أولادك ، إن نهايتى قد قربت ، لقد ربطنى ابنك وضربنى ولم ينقذنى منه إلا عابر سبيل رق لى قلبه. فغضب الفلاح وثار ، وركل ابنه بقدمه وطرده ، كما طرد أخاه أمس .

ثم جاء دور محمود ، فذهب بالجاموسة إلى الحقل وصنع لها ما صنع أخواه . وأكدت له آخر النهار أنها شبعت شبعاً لم تشبعه فى يوم من الأيام . وعاد بها فرحاً مطمئناً إلى أن والده سيرضى عنه ويحبه ، متخيلا أسارير وجهه المنفرجة عندما تقول له الجاموسة إنها شبعت . ولكن خياله تبخر واعترته الدهشة لما سمعها تجيب أباه وهى تتأوه :

ـ إننى تعسة معكم . . لقد أذاقنى هذا الولد ألوان العذاب ، لقد ربطنى . . . ولم ينتظر الفلاح ليسمع بقية كلامها ، بل قال لها :

ـ نعم ، نعم ، إنه مثل أخويه وطبعهم واحد .

وهم محمود بالكلام قائلا :

ـ يا أبى . .

ـ اخرس يا كلب . . إنكم لا تستحقون الحنان والإكرام ، اخرج من بيتى فلا أريد أن أراك بعد اليوم .

وفى اليوم التالى وجد الفلاح نفسه وحيدا ، ليس له إلا أن يرعى جاموسته بنفسه ، فذهب بها إلى الحقل ، وأراد أن يركبها ليريح نفسه

من المشى لكبر سنه وضعف جسمه، ولكنه أشفق عليها لما ظن أنها قاسته فى الأيام الماضية من جوع وآلام ، واعتنى بها وبإطعامها كل الاعتناء ، وقالت له إنها شبعت ولا تستطيع أن تأكل أكثر مما أكلت . فلما عاد بها إلى البيت ظن أنها قد تكون جاعت فقال لها : هل جعت أو مازلت شبعى ؟ فقالت فى استنكار :

— ما زلت شبعى ! وهل أكلت حتى أشبع ؟ إنكم — بنى آدم — تصدقون أنفسكم وأنتم واهمون . . !

دهش الرجل ، وأدرك أنه تسرع فى الحكم على أولاده المساكين وأنه ظلمهم دون أن يتبين حقيقة الأمر ، وقال للجاموسة فى مرارة وسخرية :

— أظن أنى واهم أيضاً فلا أدرى أنى ربطتك بحبل إلى النخلة وضربتك بالعصا حتى كدت تموتين من الضرب . . أليس هذا ما كنت تقولينه عن أبنائى الثلاثة الذين حملتنى على طردهم وتشريدهم أيتها الجاحدة المنكرة للجميل ؟

وأسرع فأحضر سكيناً وذبحها .

وجعل يفكر فى أولاده نادماً على تسرعه معهم وقسوته عليهم ، مشتاقاً إلى رؤيتهم ، متمنيا أن يرجعوا إليه فيكفر عن ذنبه بحسن معاملتهم واغداق الحنان عليهم .

أما الأولاد أنفسهم فقد ذهب كل منهم فى طريق . سار أحمد أياماً وليالى بدون طعام ، لا يعرف إلى أين يتجه ، يشرب من ماء الترع

وينام حيث يدركه النعاس . وظل هكذا حتى رآه رجل كواء وشاهد سوء حاله ، فأشفق عليه ، وعرض عليه أن يعمل عنده فى كى الملابس للناس ، فقبل شاكراً . وألبسه الكواء ثياباً نظيفة بدلا من ثوبه البالى .

عمل أحمد مع الكواء بجد وإخلاص ، فكان ينظف الثياب ويكويها ولا يؤخر ثياب أحد ، مما جعل الناس يقبلون على المحل ، واشتهر الكواء وكثرت أرباحه حتى صار من الأغنياء . وظل أحمد يعمل مع الكواء سنتين وهو سعيد ، ثم اشتاق إلى رؤية والده وقال فى نفسه إنه لابد قد عفا عنه وندم على ما فرط منه . ثم عزم على أن يسافر إلى بلده ليرى والده وأهله ، وأخبر الكواء بذلك ، فقال له :

— إنى وإن كنت آسفاً لفراقك لا أعارضك فى الذهاب إلى والدك ما دمت تريد أن تراه .

وإنى أشكرك على إخلاصك لى وجدك فى العمل الذى كسبت منه مالا يكسبه التجار . ورأى الكواء أن يكافىء أحمد بهدية عجيبة . . هى « طبلية » ومفرش ، وقال له :

— هذه مكافأة يسيرة على خدمتك لى . ولن تحتاج إلى شراء طعام ما دامت هذه الطبلية وهذا المفرش معك :

— وكيف ذلك ؟

— ما عليك إلا أن تضع الطبلية أمامك وتطلب ما تشاء من أصناف الطعام ، ثم تبسط عليها المفرش ، فتجد ما طلبت فوقه .

عجب أحمد غاية العجب ولحظ الكواء تعجبه فقال له :

ـ فلنجرب . . هذه الطبلية فقل لها ما تشتهى .

ـ لا أريد سوى سمك وأرز ، فاننى لم أذقهما منذ زمن، وأشتهيهما الآن .

ثم وضع المفرش على الطبلية ، فوجد أمامه ما طلبه . . ! وقال أحمد للكواء :

ـ ولكن لماذا لاتستبقى أنت هذه الطبلية العجيبة وتستعملها ولاتتعب نفسك بالعمل فى كى الملابس وتنظيفها ؟ !

ـ يا بنى ، إننى أصبحت من الأغنياء بفضل اجتهادك وإخلاصك فى العمل ، ولست محتاجاً إليها فأنت أحق بها وأنا لا أستطيع أن أعيش بدون عمل مهما بلغت ثروتى ، فالعمل هو لذتى وسعادتى . وقد يذهب المال أو أفقد الطبلية فلا أحزن ما دمت قادراً على العمل .

وشكر أحمد الكواء وسافر إلى بلده حاملا طبليته ومفرشه ، وأدركه الليل قبل أن يصل إلى قريته ، ورأى فندقاً صغيراً فعرج عليه لينام فيه ليلته . ورحب به صاحب الفندق ولما شعر أحمد بالجوع تذكر الطبلية والمفرش ، ثم فكر فى أن يكرم صاحب الفندق فدعاه إلى العشاء معه بعد أن طلب من الطبلية أصنافاً من الطعام وفرش المفرش .

أكل صاحب الفندق مع أحمد، ثم قال فى نفسه: « من أين أتى هذا الشاب بهذه الأصناف . . دجاج وحمام وخضر وفاكهة . . ولم

أر معه غير هذه الطبلية وهذا المفرش ؛ والأعجب من ذلك أن الطعام ساخن طازج ! ! » .

ولم ينم صاحب الفندق فى تلك الليلة ، فقد انتظر حتى نام أحمد فتسلل إلى حجرته ، وأخذ الطبلية والمفرش دون أن يشعر به ، وجعل يقلب الطبلية ويفحصها . . لم يجد فيها شيئاً غير أرجلها وخشبها ومساميرها . . ثم وضعها أمامه ومسح عليها بخرقة ، كما فعل علاء الدين بمصباحه ، لعل يخرج له جنى يقول له اطلب ما تريد . . ولكن هذا لم يحدث ، فيئس ، ثم قال يحدث نفسه : لو كنت أعلم سرها لطلبت ما أشتهى . . وسكت قليلا ثم قال : إنى أشتهى سمكا مقلياً . . وجعل يبسط المفرش على الطبلية يائساً وهو يقول : ولكن أنى لى ! ثم نظر فرأى السمك المقلى أمامه على الطبلية ! فكاد يطير من الفرح والسرور . ثم ذهب إلى السوق فاشترى طبلية ومفرشاً آخرين مماثلين ، وذهب بهما فى خفة وحذر إلى حجرة أحمد ووضعهما مكان طبليته ومفرشه .

وفى الصباح استيقظ أحمد ، فأخذ الطبلية والمفرش ، ونقد الرجل أجر نومه فى الفندق ، ورحل إلى قريته ، فاستقبله أبوه بين ذراعيه وقبله ، وفرح بعودته ، ثم حكى أحمد لأبيه قصته وقال له :

— أرى يا أبى أن تدعو كل أصدقائك ليأكلوا عندنا .

فدعا الوالد أصدقاءه ومعارفه ، وازدحم البيت بالمدعوين . فلما جاء موعد الأكل قال لهم أحمد بصوت عال :

ــ ماذا تطلبون من أصناف الطعام ؟

فطلب كل واحد ما يشتهى ، وأحمد يردد ما يقوله ، ثم بسط المفرش على الطبلية . . ولكنه لم ير عليها شيئاً ، فأعاد الطلب دون جدوى . .

وسخر المدعوون من أحمد وأبيه وقالوا إنهما مخبولان . . وخرجوا يسبونهما ويلعنونهما . وقدر الأب أن ابنه متعب مجهد ، وأن التعب والإجهاد ، ومالاقاه من آلام فى غربته ، قد أثرت فى عقله ، فأشفق عليه ؛ وقال له : اذهب يابنى إلى فراشك واسترح فإنك متعب . وذهب أحمد إلى فراشه وهو يذرف الدموع ويشعر بالخجل والحزى .

وأما « على » الابن المتوسط فقد خرج هائماً على وجهه ، بعد أن ضربه أبوه وطرده ، ثم جعل يبحث عن عمل يرتزق منه ، فكان يتلقى مثل هذه الردود :

« لا ، مع الأسف » ــ « هذا العمل لا يصلح لصغير » ــ « هل تجيد حياكة الثياب ؟ » ــ « هذا من المستحيل لأنك صغير » .

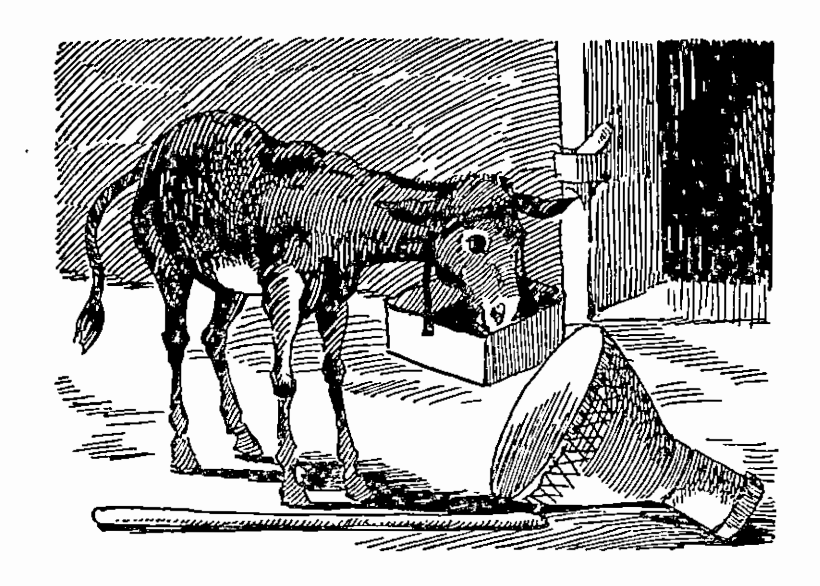
ولكنه لم ييأس ، بل ظل يبحث حتى رأف به فلاح فقبل أن يؤويه فى مقابل أن يساعده فى عمله . وصار على يعمل نهاراً وليلا ، فسر الفلاح به وزاد عطفه عليه وتمسكه به وخاصة بعد أن جنى محصولا كبيراً بسبب ما بذله على من جهد كبير فى خدمة الأرض والزرع .

ثم اشتاق على إلى رؤية والده وأهله ، وفاتح الفلاح برغبته فى

السفر إلى بلده ، فوافق الفلاح مبدياً أسفه لفراقه ، وكافأه على جهده وإخلاصه بأن أعطاه حماراً وصندوقاً خشبياً وقال له: إذا أردت نقوداً فاضرب الحمار بعد أن تضع الصندوق تحت فمه .. فإنك تجد بالصندوق ما تريد من المال .

فشكره على وأخذ الحمار والصندوق ورحل إلى بلده ، وقرب وصوله إلى قريته أقبل عليه الليل عند الفندق الذى كان أخوه أحمد قد نزل به وفقد فيه الطبلية والمفرش ، ودق باب الفندق ، واستقبله صاحبه ، وأنزله بإحدى الحجرات ، فأعطاه على مبلغاً كبيراً من المال مقابل نزوله بالفندق ، فتعجب الرجل من أمر على . . شاب فلاح يملك مالا ، يعطى منه هذا القدر الكبير مقابل نومه ليلة فى فندق ! وهو لابد فلاح ، والدليل على ذلك أنه يملك حماراً . . هذا أمر عجيب ! أيكون السر فى الصندوق ؟ لا ، إنه فارغ . . أيكون فى الحمار ؟ وكيف ذلك ؟ .

ظل صاحب الفندق ساهراً يبحث عن سر النقود الكثيرة التى يملكها على ، وأخذ الصندوق وقلّبه، ثم وضعه أمام الحمار ووقف يتأمل ويفكر عسى أن يجد فى الحمار شيئاً غير عادى ، فلم يعثر على شىء . فركل الحمار من شدة غيظه وقال : هل من المعقول يا وجه النحس أن أجد فيك ذهباً ! فنهق الحمار ، فنزلت النقود من فمه إلى الصندوق . . فدهش الرجل وكاد يطير من الفرح . ثم خبأ الحمار والصندوق، وذهب إلى السوق واشترى حماراً وصندوقاً آخرين مماثلين . ووضع كلا مكانه .



وفى الصباح استيقظ على ، وأخذ الحمار والصندوق الزائفين وسار حتى وصل إلى قريته ، واستقبله أبوه وأخوه أحمد مسرورين به كل السرور .

وأخبر على أباه بسر الحمار والصندوق ، واقترح عليه أن يدعو أصدقاءه إلى مشاهدة الحمار وهو يسقط المال من فمه . ولكن الأب قال وقد ظن بابنه الظنون :

ـ كفانا تعرضاً للهزء والسخرية ، وحسبى ما لقيت بسبب التسرع وعدم التثبت والتروى . . .

قم يا بنى إلى فراشك واسترح فإنك متعب ، ثم فكر بعد ذلك فيما تقول :

ولما أصبح الصباح نهض على وأصر على أن يقنع والده بصحة ما قاله ، فأتى بالحمار والصندوق وجعل يضرب الحمار ويأمره أن ينزل نقوداً ، فلم يفعل . .

فابتسم الأب فى مرارة ، وحمد الله على أن وفقه إلى التمهل والتروى فى هذه المرة ، ولزم على الصمت وهو كئيب حزين .

وأما « محمود » الصغير فقد خرج هو كذلك مثل أخويه ، بعد أن طرده أبوه ، وظل يبحث عن عمل حتى اشتغل فى مخبز ، وأخلص فى خدمة صاحبه . ثم اشتاق إلى والده ، فاعتزم أن يعود إلى بلده ، وكافأه صاحب المخبز على إخلاصه فى العمل بأن أعطاه عصاً غليظة وقال له : عند ما تريد أن تجازى أحداً أساء إليك فقل لهذه العصا : اضربى يا عصاى فلاناً الذى فعل كذا وكذا . فإنها تضربه ولا تكف عن الضرب حتى تقول لها : كفى فإن المضروب قد اكتفى .

شكر محمود صاحب المخبز وأخذ العصا وسافر إلى بلده ، وفى الطريق مر ليلا بالفندق الذى نزل به أخواه من قبل ، ونزل به ليبيت فيه .

جعل صاحب الفندق يتأمل «محمود» ، فقد استرعى انتباهه شبهه لأخويه وقال فى نفسه : إنه لابد أخوهما ولا بد أنه محظوظ مثلهما وتسلل إلى حجرته وكان محمود لما ينم بعد ولكنه تظاهر بالنوم . أخذ

الرجل العصا وهو يحدث نفسه قائلا : أيكون فى هذه العصا سر مثل الطبلية والحمار اللذين أخذتهما من أخوى هذا الولد . .

وسمع محمود كلام صاحب الفندق ، ففهم منه أن أخويه أحمد وعلى نزلا بهذا الفندق وأن صاحبه سرق منهما طبلية وحماراً لا بد أن لهما شأناً . . فقام ونظر إلى العصا وقال لها .

— اضربى يا عصاى صاحب الفندق الذى سرق الطبلية والحمار . .

فجعلت العصا تضرب صاحب الفندق وهو يصرخ ويرجو أن يأمرها محمود بالكف عنه ، ولكن «محمود» قال :

— لن أفعل حتى تعيد إلىّ ما أخذته من أخوىّ .

— طيب ، مرها لتكف حتى أتمكن من إحضار الأشياء التى أخذتها .

— كفى ، فإن المضروب قد اكتفى . وإن لم يحضر الأشياء ، فعودى إليه بالضرب والأيذاء .

وذهب صاحب الفندق وأتى بالطبلية والمفرش والحمار والصندوق . وأخذها محمود وأخذ العصا ، واتجه إلى قريته ، فاستقبله أبوه وأخواه أحسن استقبال . وقص عليهم قصته ، وفرح أحمد بطبليته ومفرشه ، وفرح على بحماره وصندوقه . ولكن أباهم ظل فى شكه وتخوفه من أن يكون أولاده الثلاثة قد أصابهم الخبل ، ولكنه لم يتسرع فى مواجهتهم بشكوكه ومخاوفه ، فقد تعلم مما مضى أن يتأنى فى الحكم على الأشياء ويصغى إلى

ما يقال حتى يتبين الحقيقة ، وطلب الى كل منهم أن يقوم بالتجربة أمامه قبل أن يجازف ويدعو الناس إلى الطعام على الطبلية ، ومشاهدة النقود تخرج من فم الحمار إلى الصندوق ، والعصا تضرب من يسيء الأدب .

وسر الأب سروراً عظيماً عندما تحقق من صدق أولاده الثلاثة ودعا أصدقاءه وأقاربه إلى حفل كبير أكلوا فيه ما لذ وطاب وأخذ كل منهم كمية من النقود ، ثم أخذ الأب وأولاده يوزعون الطعام والنقود على أهل القرية حتى لم يبق فيها جائع ولا محتاج ، وكانت العصا بالمرصاد لأولئك الذين لا يعجبهم العجب ، فيطلقون ألسنتهم فى الناس بالحق وبالباطل ، فلم يجرءوا على أن يشوهوا عمل الخير بالأكاذيب والإشاعات التى اعتادوها .

قصة لا نهاية لها

فى مملكة من ممالك أرض الله الواسعة كان يحكم ملك قاسى القلب لا تعرف الرحمة إليه سبيلا ، يعمل كل ما تصور له خيالاته وما تمليه عليه نزواته ، حتى ضج الناس من ظلمه واستبداده .

ولكنه مع خصاله السيئة الذميمة كانت فيه خصلة واحدة حميدة . . هى أنه يرتبط بما يقول ويفى بما يعد .

وكانت له بنت ذات حسن وجمال ، ممشوقة القوام ، فاتنة اللحاظ ، قد كبرت ونضجت أنوثتها وفتن بها كثير من الشباب والرجال ، وكان كل منهم يتمنى أن يظفر بالزواج منها ، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يتقدم لخطبتها من أبيها الملك خوفاً منه .

وفكر الملك فى زواج ابنته واختيار زوج كفء لها على أن يكون ذا فطنة وذكاء .

ثم استقر رأيه على طريقة يعرف بها ذكاء من ليتقدم لخطبة ابنته وسعة معرفته ، فأعلن بين الناس أن من يأتى اليه ويقص عليه قصة لا نهاية لها فإنه يزوجه من ابنته الوحيدة ويعطيه نصف أملاكه ، وأن كل من يأتيه ويصدع رأسه بقصص لها نهايات فإنه سيأمر بقطع رأسه وإنهاء حياته .

وذاع النبأ بين الناس فى المدينة وفى غيرها من البلاد ، وراح كل من يتطلع إلى الحظوة ببنت الملك يبحث ويكد ذهنه عساه يهتدى إلى قصة لا نهاية لها ، وتقدم كثيرون بقصص زعموا أنها لا تنتهى ، ولكن كل من تقدم كانت لقصته نهاية برغم زعمه وادعائه ومحاولة خداع الملك ، وكان مصيرهم جميعاً القتل .

وفى يوم من الأيام وصل إلى المدينة أمير من البلاد البعيدة ، مشهور فى البلاد المختلفة بالجود والعدل والوفاء والفطنة . وعرف أهل المدينة أن الأمير أتى كى يتقدم إلى الملك ويقص عليه قصة لانهاية لها ليظفر بابنته الجميلة ، فداخل الناس الخوف والإشفاق عليه ، لأنهم كانوا يحبونه من سيرته ويتناقلون أخباره المشهورة ، ولهذا خشوا أن يكون مصيره كمصير من سبقوه وانتهت حياتهم كما انتهت قصصهم ، ودعوا الله من أجله راجين له التوفيق ، وقال قائلهم : إن الأمير المحبوب لابد أن تكون قصته لا نهاية لها مثل أعماله الخيرة وأفضاله الكثيرة ، وأن الله الذى لا يتخلى عن أمثاله الطيبين الخيرين لابد أن ينصره ويوفقه .

دخل الأمير قمر الزمان — وهذا هو اسمه — على الملك ، وأخبره بما أتى من أجله ، فقال له الملك :

— هل تعلم ما اشترطنا ؟

— نعم يا مولاى الملك . . قصة لا تنتهى حوادثها .

— وهل تعلم جزاء من يخفق ؟

ــ نعم يامولاى . . قطع رأسه .

ــ وهل تعلم بما وقع لمن جاءوا قبلك ؟

ــ أعلم يامولاى . . لقوا جميعاً حتفهم لأن قصصهم انتهت حوادثها . أما أنا فإنى واثق مما أقول .

ــ إنك يا بنى شاب جميل المحيا تظهر عليك علامات النبل ، فلا تغامر بحياتك ، فإنى لن أرحمك .

ــ ما كنت يا مولاى أقدم على هذا الأمر ، وأنا أعلم عاقبة الإخفاق فيه ، لولا أننى واثق كل الثقة بأن قصتى ستفوز برضاك لأنها تنطبق على الشرط تماماً .

ــ إذن فهات ما عندك .

وأخذ الأمير قمر الزمان يقص على الملك قصته ، قال :

فى إحدى القرى البعيدة يعيش رجل اسمه « عثمان البخيل » وقد أطلق عليه هذا اللقب لشدة بخله وحرصه على المال ، وقد تجرد من كل عاطفة خير وصار لا يحب إلا المال . . بل هو يعبده عبادة . . لا يتصدق على الفقراء ولا يعطف على المساكين ، وكل اهتمامه موجه إلى المحافظة على ماله الكثير ، فقد جنى من مزارعه الواسعة غلالا كثيرة ، وبنى لها مخازن كبيرة لتسعها ، وأقام حول المخازن سورا هائلا ليس له باب من أية جهة من الجهات ، فلا يكون الدخول إلى المخازن والخروج منها إلا بوساطة سلم كبير يحفظ فى منزله ويؤتى به عند اللزوم . .

ولا تساع تلك المخازن وطول ذلك السور أطلق عليها مدينة « عثمان البخيل » وكان عثمان البخيل يعيش فى عزلة عن أهل القرية حتى لا يطمع أحد منهم فى ماله . وفى سنة من السنين أصابت القرية مجاعة شديدة ، فقد امتنع المطر وجف الزرع وهلكت الماشية ، ولم يجد الناس ما يأكلونه ، فاضطروا إلى أكل الكلاب والحمير ، ومات كثير منهم من الجوع .

وفكر أهل القرية فى حالهم وبحثوا عن طريقة تحفظهم من الموت جوعاً ، فقال واحد منهم :

أرى أن نلجأ إلى عثمان البخيل لعله يمدنا بشىء من الحبوب المكدسة فى خزائنه .

فقال آخر :

ـ إن عثمان البخيل . . بخيل ، وقلبه أقسى من الحجر ولن يرق لنا ولو هلكنا جميعاً .

وقال ثالث :

ـ ولماذا لا نجرب ؟ لن نخسر شيئاً ، إذا أعطانا . . أعطانا ، وإذا رفض كنا قد عملنا ما علينا ، والله سبحانه وتعالى لن ينسانا على كل حال وسيجعل بعد العسر يسرا وبعد الشدة فرجاً .

واختاروا من بينهم وفداً قصد إلى عثمان البخيل ، ولما وصل إليه الوفد حدثه فى الأمر ووصف له حال القرية وما صار إليه الناس فيها ، فقال لهم :

« إننى لم أتعب فى جمع مالى وخزن هذه الحبوب لكى تأكلوها . . إنها من عرق جبينى وليس لأحد حق فى أن يطالبنى بشىء منها » .

ورجع الوفد حزينا خائباً ، وأبلغ الناس ما قاله عثمان البخيل ، فاستسلموا للقضاء والقدر ، حتى كادوا يهلكون .

ولكن رحمة الله الواسعة أرادت أن تنجى أهل القرية من ذلك الكرب العظيم ، فأرسل الله جيشاً كبيراً من جماعات النمل التى لا يحصى عددها إلى مخازن عثمان البخيل ، وكان بسور المخازن ثغرة صغيرة جداً لا تسع إلا نملة واحدة ، فاضطر النمل أن يدخل واحدة فواحدة . .

ودخلت النملة الأولى وأخذت حبة وخرجت متوجهة إلى أهل القرية ، ثم عادت لتأخذ حبة أخرى . . ودخلت النملة الثانية وأخذت حبة وخرجت إلى أهل القرية . .

واستمر الأمير قمر الزمان يحكى للملك عن كل نملة من النمل الذى لا ينتهى عدده . . وكيف دخلت كل واحدة وخرجت بحبة وذهبت بها إلى القرية . استمر يحكى أياماً وشهوراً . . وكلما سأله الملك عما حدث بعد ذلك ، أجابه بأن النمل لا يزال يدخل ويخرج بالحب ، لأن الحبوب فى المخازن كثيرة جداً والنمل لا حصر له . . حتى مل الملك ، ولكنه لم يسعه إلى أن يعجب بذكاء الأمير قمر الزمان ويعترف بأن القصة التى أتى بها لا نهاية لها طبقا للشرط المشروط .

ووفى الملك بوعده فزوج ابنته الجميلة للأمير قمر الزمان .

وكان كثير من الوزراء وحاشية الملك وغيرهم يطمعون أن يتزوجوا منها ، ولم يكن يمنعهم من التقدم لخطبتها إلا خوفهم من بطش الملك ، فلما رأوا هذا الأمير الذكى قد حظى بها حقدوا عليه وراحوا يكيدون له فى الخفاء ، وفطن بذكائه إلى أساليبهم ودسائسهم ، ولكنه أبى أن يقابل أعمالهم السيئة بمثلها ، بل كان يحسن إلى من يسىء إليه ، مع الحذر من مكائدهم وما يدبرون له .

ثم مات الملك ، فأصبح الأمير قمر الزمان ملكاً من بعده ، فحكم حكما عادلا نزيهاً ، فأحبه جميع الناس حتى الذين كانوا يناصبونه العداء ، فانتشر العدل وعم الأمن والرخاء والسلام .

الصديق المخلص

توفى السلطان وترك ابنه عبد السلام صغيراً لم يبلغ سن الرشد التى يكون فيها سلطاناً خلفاً لأبيه . . وكانت أم عبد السلام امرأة ذكية عاقلة ، فقالت لولدها :

ـ يا ولدى ، أنت ابن السلطان ، وستكبر ، وستكون سلطاناً مثل والدك ، ولذلك لا ينبغى لك أن تكثر من صحبة الناس ، لأن بعضهم يصاحبك لمالك ، وبعضهم بجاهك ، وقليل منهم يصاحبك لنفسك .

ـ وماذا أفعل يا أمى لأعرف هذا من ذاك ؟

ـ كلما صاحبت واحداً دعه يفطر معك ، واسلق ثلاث بيضات ، وأنظر . . . فاذا أكل واحدة وترك لك اثنتين ، فهذا لاتصاحبه لأنه منافق غشاش . . يريد أن يظهر لك أنه يحبك أكثر من نفسه . وإذا أكل اثنتين وترك لك واحدة ، فهذا أيضاً لا تصاحبه . . لأنه قليل الذوق وطماع .

ـ وكيف أعرف الصديق المخلص إذن ؟

ـ تعرفه إذا قاسمك البيض . . .

وكان أول من صاحبه عبد السلام هو ابن الوزير . . عاه ليفطر معه وأحضر البيضات الثلاث ، فأكل كل منهما واحدة ، وأصر ابن

الوزير على أن يأكل عبد السلام البيضة الثالثة متظاهراً بالمودة والإخلاص .

وأعرض عبد السلام عن ابن الوزير ولم يتخذه صديقاً .

وكان الصاحب الثانى هو ابن العمدة . . . دعاه ليفطر معه ، وأحضر البيضات الثلاث ، فأكل كل منهما واحدة ، وبقيت الثالثة فتناولها ابن العمدة . . .

وأعرض عبد السلام عن ابن العمدة كذلك ، ولم يتخذه صديقاً .

رأى عبد السلام بعد ذلك أن يدع أبناء الكبراء ويبحث عن أولاد الفقراء عساه أن يجد من بينهم صديقاً صادقاً مخلصاً ، فكان صاحبه فى هذه المرة ابن الحطاب ، رآه يوماً وهو فى طريقه إلى الصيد ، رث الثياب خشن الأطراف ، وتبادلا التحية ، ودعاه عبد السلام إلى مرافقته فى الصيد فسار معه ، ثم كان عبد السلام يذهب معه إلى كوخ أبيه الحطاب فيأكل معه الخبز بالملح والدقة . . وأحياناً يشوون كيزان الذرة ويأكلون منها ساخنة لذيذة .

وتذكر عبد السلام نصيحة أمه ، فدعا ابن الحطاب ليفطر معه ، وأحضر البيضات الثلاث ، وكان فى أشد القلق . . يخشى أن يفعل ابن الحطاب مثل ما فعل ابن الوزير أو مثل ما فعل ابن العمدة ، فيفقد هذا الصديق الذى شعر نحوه بالمحبة والأخوة الصادقة ، شعوراً لم يحس به نحو الأولين . ولكن ابن الحطاب أخرج سكينه وقسم إحدى البيضات قسمين متساويين ، وقال لصديقه :

« أنت تأخذ واحدة ونصف واحدة ، وآ نا آخذ واحدة ونصف واحدة »
فسر عبد السلام سروراً عظيما . ثم أخبر أمه بما حدث ، فقالت له :
« هذا هو الصديق الذى يحبك لنفسك فتمسك به وحافظ على صداقته » .

ومنذ ذلك الحين صار ابن الحطاب صديقاً حميما لابن السلطان ، فلما كبر عبد السلام وبلغ سن الرشد وصار سلطاناً اتخذ ابن الحطاب وزيراً له ، وعاشا سعيدين فى ظلال الصداقة والمحبة والإخلاص . »

الجنية السابعة

عاش فى الزمان القديم ملك وملكة ، ولا ملك إلا الله ، لم يرزقهما الله أولاداً، وكانا فى شدة الشوق إلى ولد يفرحان به . وفى يوم من الأيام كانت الملكة تستحم فى بركة داخل القصر ، وتدعو الله أن يرزقها بولد أو بنت ،ولم تكمل دعاءها حتى رأت ضفدعة تقفز أمامها وتقول لها :

– يا ملكة ، سيجيب الله دعاءك وتولد لك بنت قبل مرور سنة ، وكل دعوة يدعوها لها أحد يقبلها الله .

وبعد ذلك حملت الملكة ، ثم ولدت بنتاً جميلة . فرح بها الملك وسماها « زين » وأقيمت الأفراح يوم ميلادها . وانتشر فى المدينة الطبل والزمر والرقص، ونثرت النقود فى الشوارع ،وملئت الأحواض بماء السكر ليشرب منها الناس .

ولما أتمت الأميرة العام الثالث من عمرها احتفل الملك والملكة بعيد ميلادها الثالث . وكان فى المدينة سبع جنيات . ست منهن صالحات، والسابعة شريرة ، فدعا الملك الجنيات الصالحات مع من دعا من الأمراء والأعيان والكبار ، ولم يدع الجنية الشريرة . وجلس الجميع فى القصر بعد تناول الطعام ، وطلب الملك من الجنيات الصالحات أن تدعو كل منهن دعوة للأميرة ، فقالت الجنية الأولى : يا رب طول عمر الأميرة .

وقالت الثانية : يا رب ارزقها الصحة . وهكذا دعا لها الجنيات الصالحات الباقيات بدعوات مناسبة . حتى جاء دور السادسة فقالت : يا رب . . وقبل أن تكمل دخلت الجنية الشريرة وأسرعت تقول :

«يا رب تنخس الأميرة إبرة وهى فى العاشرة فتموت فى الحال »

قالت ذلك واختفت ، فأسرعت الجنية السادسة تستدرك على هذا الكلام :

يا رب لا تجعل الأميرة تموت من الإبرة ولكن تنام مائة عام » .

كبرت الأميرة زين ، وكانت تزداد حسناً وجمالا سنة بعد سنة حتى بلغت العاشرة . . وذات يوم فى السنة العاشرة خرج الملك والملكة إلى الصيد وتركا الأميرة نائمة ومعها خادمتها الخاصة . وخرجت الخادمة لقضاء بعض الشئون ، ولما استيقظت « زين » لم تجد خادمتها ، وبحثت عن الملك والملكة فلم تجدهما فى القصر . أخذت تبكى وتنادى أباها وأمها . . ولم يرد عليها أحد . فنزلت إلى حديقة القصر ، فرأت فيها حجرة صغيرة بها امرأة عجوز تخيط ملابسها . ولم تكن قد رأت فى حياتها إبرة ، فطلبت من العجوز أن تعطيها الإبرة لتتفرج عليها .

وأمسكت « زين » بالإبرة وجعلت تقلد العجوز فى خياطة الملابس فنخستها الإبرة . . فداخت فى الحال ونامت . .

ولما عاد الملك والملة ومن معهما من الصيد ، وشاهدوا « زين » نائمة ناموا جميعاً ، كما نام جميع من فى القصر من الأحياء ، سواء أكانوا

ناساً أم حيوانات أم طيوراً .

وشاهد أهل المدينة سحباً كثيفة تلتف حول القصر . . وأشجار حديقته وتطول .. وتطول . . وتطول . . حتى اختفى القصر تماماً .

انتشر خبر اختفاء قصر الملك فى البلاد المجاورة ، وراح الناس يتحدثون عن سر اختفائه ، وكل منهم يذكر سبباً مخالفاً للآخر ، ولكن السر الحقيقى لم يعرفه أحد .

ومرت الشهور تلو الشهور والأعوام وراء الأعوام ، والأجيال تتناقل الأخبار الصحيحة وغير الصحيحة عن اختفاء ذلك القصر العجيب . واهتم به ملوك وأمراء، واستعانوا بحكماء وعلماء، وحاولوا اكتشاف القصر المختفى ، فأخفقوا ولم يصلوا إلى شىء . .

وفى العام التاسع والتسعين من اختفاء القصر سمع أمير شاب يسمى « حيدر » حكاية هذا القصر من جده العجوز ، فاهتم به اهتماماً كبيراً . وأخذ يسأل عنه كل من يعرفه ، فسمع عنه الأعاجيب كما سمع عن جمال « زين » فازداد اهتمامه وجعله لا ينام الليل ، وأقسم أن يبحث عن القصر حتى يجده .

كان الأمير حيدر شجاعاً قوياً . ركب حصانه ومعه رجاله وخدمه ، وساروا يبحثون عن القصر .

وصادف وصول الأمير حيدر إلى مكان القصر آخر يوم من المائة السنة . . وكان سروره عظيماً عند ما رأى الأشجار مخضرة والأزهار فوقها

متفتحة جميلة . ودخل من باب الحديقة وسار بين الأشجار الغزيرة حتى وصل إلى حجرة صغيرة دفع بابها ، ونظر . . فرأى الأميرة الصغيرة قد استيقظت من نومها وفتحت عينيها تنظر حولها . فابتسم لها وابتسمت له وقالت :

– من أنت ؟

– أنا الأمير حيدر ، جئت لإنقاذك .

– أين أبى وأمى ؟ بالله خذنى إليهما .

وتعلقت « زين » بذراع الأمير حيدر ، فخرج بها إلى القصر ، ووجدا الجميع قد استيقظوا . ورأى الملك جالساً على مقعد من ذهب وبجواره الملكة . ولما أبصر الملكُ والملكة بنتهما « زين » ومعها الأمير قاما وأسرعا نحوهما وعانقا ابنتهما .

ثم سأل الملك الأمير حيدر عن أمره وسبب وجوده ، فحكى له قصته .

وأقيمت فى القصر حفلة كبيرة ابتهاجاً بعودة القصر وأهله واستيقاظهم من النوم ، ودعا الملك – فيمن دعا – الجنيات الست الصالحات ، ولم يدع الجنية السابعة الشريرة . وكان الأمير حيدر مقيما فى ضيافة الملك الذى أكرمه غاية الإكرام .

وعرف الأمير حيدر – فى أثناء إقامته فى القصر – بأمر الجنية الشريرة وما كان منها . فاهتم بهذا الأمر اهتماماً شديداً لأنه خشى أن تعود

إلى الدعاء على « زين » فيستجاب دعاؤها ، وكان حب « زين » قد دخل قلبه منذ أن سمع قصتها ، فلما رآها ازداد حبه ولم ينس أبداً ابتسامتها عند ما رآها أول مرة .

لذلك فكر الأمير حيدر فى طريقة ينقذ بها حبيبته من شر الجنية . ولما أقيمت حفلة الابتهاج بعودة القصر كان هو مهموماً مشغول البال . . وعند ما كانت الجنيات الصالحات يدعون لزين كان قلقه يزداد ويتوقع ظهور الجنية السابعة ، وكانت يده على مقبض سيفه وهو يفكر هل يسرع إليها بمجرد ظهورها بضربة قاتلة من سيفه ؟ ولكن الجنية ليست بشراً ثابت الجسم يصيبه السيف . وتذكر نصائح جده العجوز المجرب الحكيم . . قال له ذات مرة : إن السيف يا بنى لا يستطيع أن يعالج كل الأمور ، فإذا عرضت لك مشكلة لا تنفع القوة فى حلها فعليك بالحكمة والعقل . . وقد تنقذك فكرة بسيطة من أعقد الأمور .

وكان فكره يعمل بسرعة ، فلما فرغت الجنية الخامسة من دعوتها وبدأت السادسة تقول : يا رب .. أشار لها بالتوقف لحظة ، وقال لها : ادعى للأميرة أن يحفظها الله من شر الجنية السابعة .

ودعت الجنية السادسة بما قال لها الأمير حيدر فلم يظهر للجنية السابعة أثر .

وسر الجميع سروراً عظيما وخاصة الملك والملكة . وقال الملك للأمير حيدر :

ــ لن ننسى جميلك أبداً . . فاطلب ما تشاء .

قال الأمير :

ــ أطلب شيئاً واحداً ، وهو أن أتزوج الأميرة زين .

فقبل الملك والملكة . وأقيمت الأفراح والليالى الملاح ، وتزوج الأمير حيدر الأميرة زين وعاشا فى التبات والنبات . ورزقا البنين والبنات . .



حواديت من سوريا



مسكين . . . زوج « الطرطوعة »

كان لامرأة ثلاثة أولاد توفى أبوهم وهم صغار ، فقامت بتربيتهم حتى كبروا وتزوجوا وانفصل كل منهم بزوجته فى بيت خاص . وكانوا يزورونها وتزورهم ، فتسألهم عن أحوالهم وتبحث معهم كل ما يعرض لهم من مسائل ومشاكل .

سألت الأول ذات يوم :

ــ كيف حالك يا ولدى . .

ــ بخير يا أمى والحمد لله .

ــ كيف حال زوجتك ؟

ــ طيبة .

ــ هل أنت مستريح معها ؟

ــ لا بأس على العموم .

ــ يبدو أن هناك شيئاً ؟

ــ نعم يا أمى . إن فيها عيباً واحداً .

ــ وما هو ؟

ــ كلما عدت إلى البيت أجده وسخاً وكل شىء مهمل .

وزار الأم ولدها الثانى ، فسألته كما سألت الأول ، وأجابها بأن كل شيء على ما يرام ، غير أن فى زوجته عيباً واحداً ، هو أنها لا تعمل له كل يوم إلا صنفاً واحداً لا يتغير . . فكلما عاد إلى البيت وسألها ماذا أعددت لنا قالت : « شوربة ! »

وزارها الابن الثالث ، وسألته كما سألت أخويه ، وأجابها كما أجابا ، وقال أن فى زوجته عيباً واحداً هو أنها خفيفة العقل (طرطوعة) .

ووعدت الأم أولادها الثلاثة بأن تزورهم فى بيوتهم ، وتحاول أن تصلح ما فى زوجاتهم من عيوب .

ذهبت إلى منزل الأول وأقامت به عدة أيام كانت فى أثنائها تراقب زوجة ابنها لترى ماذا تفعل ، حتى عرفت أنها تنشغل طول الوقت بغزل الخيوط فلا تجد وقتا لتنظيف البيت . فقالت لها ذات صباح ؛ هات المغزل يا ابنتى لأغزل لك ، وقومى أنت نظفى البيت ورتبيه .

وبعد ما فرغت زوجة الابن من تنظيف بيتها وترتيبه وعادت إلى حماتها لم تجدها غزلت الا خيطاً واحداً .

قالت الحماة :

ــ هذا هو ــ يا بنيتى ــ الخيط الذى يتم غزله فى المدة التى تنظفين فيها البيت ، وهو شيء تافه لا يستحق أن تهملى من أجله بيتك ، فعليك أولا أن تقومى بواجب التنظيف والترتيب ، ثم خذى فى الغزل كما تشائين .

ـ حسنا يا أماه ، سأفعل .

ثم زارت الأم منزل ابنها الثانى ، وأقامت به كذلك عدة أيام تراقب فيها حال زوجة ابنها . كانت تسألها : ماذا تصنعين اليوم من الطعام فتجيب : « شوربة ! » ولاحظت الحماة أن زوجة ابنها تقف أمام المرآة وتمرن فمها على أن يكون ضيقاً وهى تنطق كلمة « شوربة » لأن فمها واسع ، وتريد أن تدارى عيبه ، فقالت لها :

ـ يا بنيّتى إن فمك واسع حقاً ولكنه ليس دميما . وإذا تركته على طبيعته فإنه يكون حسنا . ولكن إذا تكلفت أن تظهريه ضيقاً فإن هذا التكلف لا يخفى سعته ، ويضاف إلى هذا أن التكلف نفسه ثقيل الظل .

ـ وماذا أفعل يا أمى ؟

ـ اتركى فمك على طبيعته ، فلا تتقيدى بكلمة « شوربة » التى تتخليين أن فمك يضيق بنطقها ، انطقى كل الكلمات حتى كلمة « صفيحة * » التى يتسع الفم عند التلفظ بها . وأعدى اليوم الطعام لزوجك « صفيحة » وعندما ما يجئ ويسألك ماذا أعددت لنا اليوم قولى له : « صفيحة » وسيسر جداً بهذا الصنف لأنه يحبه منذ الصغر .

ونفذت الزوجة ما أشارت به عليها حماتها ، ففرح زوجها وزال ما بنفسه .

---

* طعام سورى يصنع من الدقيق واللحم وينضج فى الفرن .

وبقيت زوجة الابن الثالثة ، ذهبت إليها الأم ، ومكثت معها أياماً حدثت فيها عدة حوادث . . حدث مرة أن سمعت زوجة الابن صراخاً فى المنزل المجاور ، ففتحت النافذة وأطلت ، فلما لم تر أحداً تعرف منه الخبر ، خرجت إلى الشارع تسأل هذا وذاك . . ثم عادت ، فسألتها حماتها لماذا تهتم بأمر تافه كل هذا الاهتمام . . فأجابت : أريد أن أعرف ماذا جرى عند الجيران ، أأكون جارة لهم ولا أعلم بما يحدث لديهم ؟

وحدث مرة أخرى أن سمعت جلبة آتية من السوق فأسرعت بالخروج وغابت مدة ثم رجعت ، فسألتها حماتها :

ــ أين كنت ؟

ــ أين كنت ! ! كنت أعرف ما فى الدنيا .. أتريدين أن أقفل على نفسى الباب ولا أرى شيئاً مما يجرى فى الدنيا . . ؟

وهكذا كانت تصرفاتها وحججها ، مما لم تنفع فيه حكمة الأم ونصائحها .

ثم جمعت الأم أولادها الثلاثة ، وقالت لهم :

« لقد عملت ما على . . الوسخة جعلتها نظيفة ، والتى تقول "شوربة" جعلتها تقول "صفيحة" ونظرت إلى ولدها الثالث نظرة إشفاق وقالت :

« أما الطرطوعة . . فالكلام معها ذاهب فى بالوعة . . »

السلطان . . صانع السجاد

كان السلطان حسن يسير متخفياً ومعه وزيره بدر الدين متخفياً مثله . وعطش السلطان ، ورأى على باب منزل فى الطريق فتاة رائعة الحسن ، فمال إليها وسألها أن تسقيه ، فدخلت إلى المنزل وخرجت له بالماء ، فشرب ، وشرب الوزير ، ثم استأنفا السير ، وقال السلطان :

— ابنة من هذه الفتاة ؟

— ابنة أحد رعاياك يامولاى .

— إنها رائعة . . .

— أجل يا مولاى السلطان .

ولم ينم السلطان حسن ليلته ، فقد وقع فى حب الفتاة وجعل يفكر فيها . ولما أصبح الصباح استدعى الوزير وأمره أن يذهب إلى والد الفتاة ويخطبها له .

ونفذ الوزير أمر السلطان ، وأراد والد الفتاة أن يستطلع رأيها فقال لها :

— السلطان يريدك زوجة له يا ست الحسن والجمال .

— ما صناعته ؟

— صناعته . . ؟ إنه السلطان !

ـ لا ، لا أتزوج رجلا لا صناعة له . .

وأبلغ الوزير السلطان ما قالته ست الحسن والجمال ، فدهش ، وأمره أن يعيد عليها الطلب ويحمل إليها أنفس الهدايا ، لعلها تلين . .

وقال الوالد لابنته :

ـ يا ابنتي ، إن السلطان أرسل لك هدايا ثمينة جدا .

ـ لا ، لا أقبل . قلت إني لا أتزوج رجلا لا صناعة له . .

ـ وما حاجة السلطان إلى الصناعة ؟ إنه يملك كل شيء .

ولكن ست الحسن والجمال أصرت على أنها لا يمكن أن تتزوج إلا رجلا له صناعة .

وحاول السلطان حسن أن ينساها ويصرف حبها من قلبه ، ولكنه لم يستطع ، بل زاده إصرارها على موقفها شغفاً بها وحرصاً على الزواج منها

وذات ليلة أرق السلطان لتفكيره في ست الحسن والجمال وحيرته في أمرها ، فاستدعى وزيره ، وقال له :

ـ دبرني يا وزير .

ـ التدابير لله يا ملك .

ـ ما الرأى في ست الحسن والجمال ؟

ـ الرأى عندى يامولاى السلطان أن تتعلم صناعة . .

ـ وأية صناعة أتعلمها ؟

وفكر الوزير قليلا ثم قال :



ـ إن أليق صناعة بمقامكم هى صناعة السجاد . . لأنها صناعة نظيفة وتنتج مصنوعات فاخرة :

وافق السلطان على اقتراح الوزير ، وتعلم صناعة السجاد . فرضيت به ست الحسن والجمال زوجاً لها ، وزفت إليه ، وعاشت معه فى سعادة ، ولكن السعادة فى هذه الدنيا لا تدوم . . فقد وسوس الشيطان إلى نفس السلطان حسن قائلا :

كيف ترضى لنفسك أن تكون صانع سجاد وأنت سلطان على هذا العرش ، تملك وتحكم كما تشاء . . ؟ وكيف تخضع لحكم امرأة وأنت الحاكم على الجميع . . ؟ يجب أن تنبذ هذه المرأة التى أذلتك وجعلتك تنزل إلى مرتبة الصناع ! بل يجب أن تعاقبها وتنتقم منها . .

وغضب السلطان على زوجته ست الحسن والجمال ، وأمر بحبسها حتى يبت فى أمرها .

وفى يوم من الأيام كان فى إحدى جولاته متخفياً وحده ، وأبعد فى السير حتى رآه بعض أعدائه وعرفوه ، فهجموا عليه وأسروه ، وأساءوا معاملته . فعرض عليهم أن يصنع لهم سجاداً يبيعونه ويكسبون منه، على أن يحسنوا معاملته ، فقبلوا ، ومكث معهم مدة يصنع لهم السجاد ويبيعونه فى الأسواق القريبة . وخطرت له فكرة . . فقال لهم :

إن الوزير بدر الدين يهوى السجاد الفاخر ، وإنه سيصنع سجادة من النوع الذى يعجبه ، فيرسلونها إليه مع بائع يعرضها عليه لكى

يشتريها بثمن كبير . فوافقوا ، فصنع سجادة وكتب رسالة إلى وزيره بدر الدين ضمنها وصف المعتقل الذى يعيش فيه وبيان موقعه . ووضع الرسالة فى ثنية بالسجادة، ولفها وربطها ربطاً محكماً، وأوصى أن تظل السجادة بربطتها حتى تعرض على بدر الدين فيعلم أنها جديدة لم تستعمل .

ووصلت السجادة إلى بدر الدين ، واطلع على الرسالة ، وعرف منها مكان السلطان ، فأسرع إليه بجيش كبير ، وخلصه من أعدائه .

وكان أول شيء فعله السلطان حسن عقب عودته إلى القصر أن أمر بإحضار ست الحسن والجمال فى الحال ، واعتذر لها عما كان ، وشكرها، لأنها كانت السبب فى تعلمه صناعة أنقذته من أعدائه .

وعاشا فى التبات والنبات وخلفا كثيراً من الصبيان والبنات .

« كوت » الحارس

كان . . ياما كان فى قديم الزمان . . نحكى حتى ننام ، ونذكر محمداً عليه الصلاة والسلام . . كان فى بلاد الشام تاجر شاب كان أبوه شيخ التجار ، وورث عن أبيه مالا كثيراً وتجارة كبيرة ، ولكنه كان مدللا مرفها لا دراية له بشئون التجارة ، فلم يحسن فيها التصرف ، وتآمر عليه عشراء السوء وأصدقاء المنفعة ، حتى نفد المال وأفلست التجارة .

ولما ضاقت به الدنيا فى بلده فكر فى أن يهاجر إلى بلد بعيد ويسعى للحصول على رزقه . وكانت له زوجة جميلة يغار عليها أشد الغيرة حتى لا يطيق أن يراها رجل آخر . . ولم يستطيع أن يصحبها معه فى سفره البعيد ، فتركها فى المنزل بعد أن أحضر كلباً قوياً أميناً اسمه « كوت » وربطه فى فناء المنزل ، وأوصى الخباز والجزار والخضرى واللبان ، أن يذهب كل منهم إلى منزله كل يوم براتب معين من بضاعته . وأوصى للكوت بما يكفيه من الطعام . وقال لزوجته :

« لا تخرجى من المنزل لأى سبب من الأسباب ولا تدعى أحداً يدخل اليك . وعندك الكوت يحرسك ويؤنسك ، وسيحضر إليك الخباز والجزار والخضرى واللبان كل ما تحتاجين إليه . »

وفى يوم من الأيام صعدت إلى سطح المنزل لتنشر الملابس المغسولة .

وكان « ابن الملك » على سطح قصره يشم الهواء ، فنظر إليها نظرة ، ووقعت فى قلبه لهفة كادت تكسر أضلاع صدره . .

وتغير حال الأمير ، فصار واجماً ساهماً لا يشارك فى حديث ولا يتناول شيئاً من طعام . . ولما رأته أمه على هذا الحال سألته عما به فقال :

– لا شىء .

– هل أنت مريض يا بنى ؟

– لا .

– لست كحالتك العادية ، قل لى بصراحة هل يشغل بالك شىء ؟

سكت الأمير ولم يجب . وأقامت له والدته حفل غناء وموسيقى ليفرج عنه ، فأعرض عنه ولم يعبأ بالغناء والموسيقى . وأحضرت له سمير الملك ومضحكه ، فجعل هذا يتفنن فى أضاحكيه ، ولكن الأمير لم يضحك .

ثم انفردت به مربيته العجوز وقالت له :

« اسمع . . أنا مربيتك التى أرضعتك وربتك وتعرف ما تريد . . إنك تحب . . . فقل لى من هذه التى شغلت بالك وغيرت حالك . . وأنا كفيلة بإحضارها لك »

فأخبرها الأمير ، ووصف لها منزل زوجة التاجر التى فتنته وأسرت قلبه . فقالت له : لا تهتم ، سأدبر الأمر .

ولما عرف الأمير والعجوز أمر الكلب الذى يحرس منزل التاجر ،

قال لها : خذى معك رغيفين ودجاجة وقدميها للكلب .

وذهبت العجوز إلى منزل التاجر ، ودقت الباب ، فنبح الكلب ، فقالت له :

– ياكوت . . جئتك بدجاجة ورغيفين دماجة * . . إذا استقضيتك هذه الحاجة اعمل لى حالك نعسان . . .

فرد عليها الكلب الأمين قائلا :

– الكوت ما هو خاين . . سيده معين له رغيفين وصحن طعام .

ورجعت العجوز إلى الأمير وأخبرته ، فقال لها : اذهبي إليه وقدمى له « صحن بقلاوة » .

فذهبت العجوز ، وحاولت أن تغرى الكلب بالحلوى ، ولكنه رد عليها رداً صارماً كالمرة السابقة ، فرجعت يائسة

واعتزم الأمير أن يذهب بنفسه ، ويهدد الكلب ، فأخذ معه عصا من « الشوم » سميكة مبرومة طويلة . ودق الباب ، فنبح الكلب فقال الأمير :

– ياكوت . . جئتك بشومة مبرومة لأطرحك على « الزلعومة » وأكوملك أربعة أكوام .

فأجابه الكلب :

– الكوت ما هو خايف من الشومة ، الطويلة المبرومة ، ولا يخون العهد والأمان . .

---

* خبز ابيض .

وسمعت زوجة التاجر الكلام والنباح ، فنظرت إلى الأمير وقالت للكوت :

ــ ياكوت . . اتركه يعدى . . ألعبه شندى بندى . . وأوسده زندى ، وأرقصه رقص الغزلان .

فقال الكوت :

ــ لو أعرف أنك فاجرة ، ما نهرته ولا نهرة . لألحقن بسيدى على السفرة ، وأحكى له ما صار وما كان .

توتة . . توتة . . تمت الحدوته . . مليحة أم مفلوتة . . ؟ إن كانت مليحة أطعمك قرص «صفيحة » * وإن قلت مفلوتة علقتك بالتوتة . .

* طعام سورى .

الأحدب

كان فى دمشق رجل أحدب ، ذهب إلى كثير من الأطباء لعلاج حدبته ، حتى تعب من كثرة التردد على الأطباء دون فائدة . . وظل كذلك حتى دله أحد الناس على حمام يسكنه جنى صالح يشفى من الحدب ، فذهب إليه يلتمس عنده العلاج الذى استعصى على الطب والأطباء ، فنظر إليه الجنى يتفحصه ، ثم قدم إليه طربوشاً وقال له :

« البس هذا الطربوش فى رجلك . . . »

فأطاع الرجل ولبس الطربوش فى رجله . ثم قال له الجنى :

« والبس هذا الحذاء فى رأسك »

فلبسه ، فقدم له سروالا وقال له :

« إلبس هذا السروال فى يديك . . »

وكان الرجل الأحدب سريعاً فى تنفيذ كل ما طلبه منه الجنى الصالح ، لم يضيع الوقت بجدل لا فائدة منه .

ثم نظر الجنى إلى الرجل وقال له :

« اذهب الآن فلست أحدب . . »

وأحس الرجل بأن قامته تعتدل . . فبسط كتفيه ورفع رأسه ، ثم مضى شاكرا سعيداً .

والتقى الرجل الذى كان أحدب بصاحب له أحدب أيضاً . فدهش الثانى ، وسأل الأول عن أمره ، ورجاه أن يدله على العلاج الذى شفى به ، فوصف له الحمام والجنى الذى يسكنه .

ذهب الأحدب الثانى إلى الحمام ، وقابل الجنى ، وتوسل إليه أن يشفيه من حدبه كما شفى صاحبه .

فقدم الجنى إلى الأحدب الطربوش وقال له :

ــ البس هذا الطربوش فى رجلك . .

ــ كيف يكون هذا . . ؟ هل يلبس الطربوش فى الرجل ؟ !

قال ذلك ونظر إلى حذاء فى يد الجنى ، فتابع كلامه محتجاً :

ــ لم يبق إلا أن تلبسنى هذا الحذاء فى رأسى ؟ !

ولما يئس الجنى الصالح من الأحدب المجادل نظر إليه غاضباً وقال له :

« أتريد أن تجادل . . أم تريد إصلاح حالك . . ؟ »

وتناول « حدبة » الرجل الأول وهو يقول :

« إذن فخذ هذه الحدبة وضعها بجانب حدبتك . . »

وأحس الأحدب بنصفه الأعلى ينحنى أكثر مما كان . . وتحسس ما فوق كتفيه فوجد حدبتين . . واختفى الجنى عن ناظريه ، فعاد بحدبتيه نادماً حزيناً . . .

الخل الوفى

خرج الملك ذات يوم يجول فى أرجاء مملكته ، وكان متخفياً فى زى تاجر من التجار حتى لا يعرفه أحد ، وجعل يمشى فى الخلاء حتى رأى منظراً عجيباً . . رأى رجلا واقفاً فى بركة من الماء وبيديه غربال يغربل به الماء . . فتعجب منه غاية العجب ، ولما اقترب منه سأله :

ـــ ماذا تفعل أيها الرجل ؟

ـــ أبحث عن شىء .

ـــ أى شىء تبحث عنه بهذه الطريقة العجيبة ؟

ـــ شىء بحثت عنه فى كل مكان فلم أعثر عليه . . بحثت عنه بين الناس وبين الحيوان والطيور وفى الجبال وفى الرمال ، ولم يبق إلا الماء ، وهأنذا كما ترانى أبحث عنه فى هذه البركة . .

ـــ أهو شىء عزيز إلى هذا الحد ؟

ـــ ليس فى الحياة أعز منه .

ـــ هلا ذكرته لى فقد أدلك عليه أو أعينك فى البحث عنه .

ـــ إنه الخل الوفى . .

ـــ الخل الوفى . . ؟

ـــ نعم ، الصديق المخلص .

وفكر الملك قليلا ، ثم قال للرجل :

ـــ اسمع يا صاحبي ، كف عن عملك هذا وتعال . . أنا صديقك المخلص .

فخرج الرجل من البركة ، وسار مع الملك المتخفى حتى وصلا إلى قصر الملك . . فاصطف الحرس ، وعزفت الموسيقى ، وأحاط بهما الخدم والحشم فى أدب وإجلال .

نزل الرجل فى ضيافة الملك ، ونام ليلته قرير العين سعيداً بهذه الصداقة الجديدة ، راجياً أن يكون له الملك الصديق المخلص الذى ظل يبحث عنه سنين طويلة .

وفى اليوم التالى جلس الملك فى ديوانه يدير شئون رعيته ، وجلس الوزير عن يمينه ، والصديق عن شماله . وبينما هم كذلك حضر رسول يُنْبِئُ الملك بأمر هدية بعث بها إليه أحد الحكام ، وهى حلة من الحرير الفاخر مرصعة بأثمن الجواهر ، فنظر الملك إليها وأعجب بها ، وقال لوزيره :

ـــ دبرنى يا وزير

ـــ التدابير لله يا ملك .

ـــ هل ألبس هذه الحلة ؟

ـــ نعم يا مولاى انها حلة عظيمة تليق بمقامكم السامى .

وكان الصديق صامتاً ، فالتفت إليه الملك وقال له :

ــ هل ألبس هذه الحلة يا صديقى ؟

ــ لا ، لا تلبسها . .

ــ لماذا ؟

ــ ليلبسها أولا الرسول الذى أتى بها .

فأمر الملك الرسول أن يلبس الحلة ، فقال الرسول :

ــ إنها يا مولاى حلة ملكية فكيف لمثلى أن يلبسها ؟

ولكن الملك أصر على ما أمر به ، فلم يسع الرسول إلا أن ينفذ أمر الملك ، فلبس الحلة .. وإذا جسمه يتساقط قطعة قطعة ويسيل منه الدم ..

كانت الحلة مسمومة ، وكانت مكيدة مدبرة لقتل الملك ، فسر الملك بصديقه وأعجب بذكائه وإخلاصه .

وفى يوم آخر كانوا جالسين فى ديوان الملك كالمعتاد ، وإذا رسول يقبل بهدية أخرى ما رآها الملك حتى دهش لمنظرها فقال للرسول :

ــ ما هذه ؟

ــ رمانة يا مولاى .

ــ رمانة . . ؟ رمانة من ذهب ؟

ــ إنها رمانة حقيقية ذات قشرة ذهبية ، تطرحها شجرة عندنا ، واحدة فقط فى العام ، لا تطرح غيرها ، وقد أحببنا أن نؤثر بها جلالتكم .

فالتفت الملك إلى يمينه وقال :

ــ دبرنى يا وزير ، هل آكل من هذه الرمانة ؟

— نعم يا مولاى ، إن منظرها جميل ، وما دامت بهذا الشكل فلا بد أن تكون لذيذة الطعم شهية المذاق .

ثم نظر الملك إلى شماله وقال :

— يا صديقى العزيز ، لماذا أنت ساكت ؟ هل ترى أن آكل من هذه الرمانة ؟

— لا ، لا تفعل .

— لماذا ؟

— مُرْ هذا الرسول أولا يأكلْ منها .

وما أكل الرسول من الرمانة حتى سقط يتلوى على الأرض . وظهر أنه سم كان يراد دسه للملك فى هذه الرمانة الذهبية . . فازداد حب الملك لصديقه وإعجابه بوفائه وذكائه ، مما جعله يتمسك بإطالة مدة ضيافته ويبالغ فى تكريمه .

وفى يوم ثالث كانوا فى الديوان مثل عادتهم فأبلغ الملك نبأ هدية جديدة هى حصان عربى أصيل وعليه سرج من الذهب الخالص مبطن بالديباج الأخضر ومطعم بالماس ، وتحلى صدره « رشمة » من أثمن الجواهر .

وشاهد الملك الحصان فكاد يطير من الفرح به ، لأنه من هواة الخيل ولم ير لهذا الحصان مثيلا من قبل . وقال لوزيره :

— دبرنى يا وزير .

ــ التدابير لله يا ملك .

ــ ما رأيك فى هذا الحصان .

ــ إنه عظيم يا مولاى ، ما رأيت مثله .

وهم الصديق بالكلام خشية اندفاع الملك لشدة لهفته إلى الحصان ، ولكنه ضبط نفسه وانتظر حتى يسأله الملك ، فقال هذا :

ــ هيه يا صديقى .. ما أظنك تعترض على أن أركب هذا الحصان .

ــ مهلا أيها الملك العزيز ، لن نخسر شيئاً إذا انتظرنا قليلا حتى يركبه القادم به .

ــ فليكن ما ترى أيها الصديق الكريم .

وما كان أعظم دهشتهم حينما ركب الرسول الحصان ورأوا الأرض تنشق وتبتلعهما وتنطبق عليهما . .

وذات يوم خرج الملك وصديقه إلى الصيد ، وقصدا صحراء بعيدة ، وجعلا يطاردان الغزلان ، وكانت تفر منهما وتعدو ، فيعدوان وراءها ، حتى أوغلا فى الصحراء وقطعا مسافة طويلة . وقال الملك للصديق :

ــ هيا بنا نرجع فقد جاوزنا حدود مملكتى .

ــ ولكن المسافة التى قطعناها طويلة تستلزم العودة فيها أياماً ، وقد نفد ما كان معنا من زاد وماء ، فإذا سرنا راجعين هلكنا من الجوع والعطش .

ــ وبماذا تشير يا صديقى ؟

— انظر هناك . ألا ترى ذلك القصر الذى يبدو بعيداً عند الأفق .
— بلى ، أراه .
— ماذا تقول فى أن نتجه إليه ونطلب من أهله زاداً أوماء على الأقل؟
— ولكنه يقع خارج حدود مملكتى .
— إننى أعرف أصحابه وهم أناس كرام طيبون .
— لا بأس ، هيا بنا .

وسار الاثنان ، وما اقتربا من القصر حتى عزفت الموسيقى واصطفت الحراس ، وأبدى لهما كل من هناك عظيم الإجلال وأرق التحيات .

دهش الملك ، ولكن الصديق بادره قائلا :

— أنت ملك وأنا ملك ، وهذه مملكتى وهذا قصرى . وقد استضفتنى مدة طويلة فلا بد أن تتكرم بالنزول فى ضيافتى حتى نقضى معاً أياماً أخرى وقد صرنا صديقين .

ونزل الملك الأول فى ضيافة الملك الثانى ، وكانا يجلسان فى الديوان هنا كما كانا يجلسان هناك . وكان من العادات المتبعة فى هذه البلاد أن الضيف إذا كان عزيزاً فإن زوجة المضيف تخدمه بنفسها مهما كانت منزلتها .

وفى يوم من الأيام استأذن الملك المضيف صاحبه الملك الضيف فى أن يغيب عنه يوماً واحداً يقضيه فى مكان من مملكته لأمر مهم يتعلق بصالح البلاد ، وقال له :

— كلما احتجت إلى شيءٍ فاضرب هذا الطبل بهذه المقرعة فإن زوجتى تحضر وتلبى طلباتك .

— أشكرك يا صديق ، فاذهب وعد إلينا بسلام .

— وأراد الملك الضيف أن يتوضأ ، فضرب الطبل بالمقرعة ، فخرجت إليه زوجة المضيف فى جمال فاتن وحسن رائع ، تزينها الحلى الغالية ، وقد لبست ثوباً حريرياً فاخراً تجر ذيله الطويل وراءها . . وقالت بصوت عذب رقيق :

— إنى فى خدمتك .

— أريد أن أتوضأ .

فأحضرت طستاً وإبريقاً من الذهب الخالص ، وجعلت تصب الماء على يديه من الإبريق ، فلما فرغ نظر حوله فلم يجد منشفة يجفف بها الماء فقالت له :

— جفف بذيل ثوبى . . !

— عفواً يا سيدتى !

— إن هذه عادتنا فى إكرام الضيف العزيز . .

بهره حسنها ، وتسلل الشيطان إلى قلبه . . فمد يده إلى ذيل الثوب ولمس ساقها . . وفى الحال اختفت عن ناظريه . . .

ندم الملك على فعلته أشد الندم ، وخرج من القصر ، وجعل يسير على غير هدى وهو لا يشعر بما حوله ، حتى وجد نفسه أمام البركة التى لقى صاحبه عندها أول مرة ، ورأى الرجل الباحث عن الحل الوفى فى نفس المنظر الأول . . يغربل الماء . .

حواديت من السودان



الطير النحدارى

كان فى الزمان البعيد . . البعيد جداً . . زوجة تعيسة بائسة ، تقضى أيامها حزينة ، لأنها قضت مع زوجها عدة سنوات ولم يرزقها ربها بولد ولا بنت . . وكان يزيد فى حزنها وقلقها ما تشاهده على زوجها من الإعراض وعدم الاهتمام بها كما كان يفعل من قبل . وكانت نسمع أمه العجوز تقول له :

« يا ولدى ! . . إلى متى تظل بدون ولد ؟ . . تزوج يا ولدى غير هذه المرأة العاقر عسى الله أن يرزقك بولد أفرح برؤيته قبل أن أموت! »

ثم سمعت الزوجةزوجها يردد نفس الكلام . .

وتراءى للزوجة الحزينة شبح الضرة المخيف ، وتذكرت أختها التى تزوج عليها زوجها ، وما جرى بسبب هذا الزواج ، إذ أرادت الزوجة الجديدة أن تستأثر بحب زوجها كله ، فلجأت إلى « فقيه » لكى يحقق لها هذا الغرض ، فأحضر الفقيه إناء وكتب عليه ثم صب فيه لبنا فذابت الكتابة فى اللبن ثم قرأ عليه . . وقال لها :

« خذى هذا اللبن وضعيه بحيث تشرب منه ضرتك » . .

فنفذت الزوجة الجديدة ما قاله الفقيه . . وشربت الزوجة القديمة اللبن ، فذهب عقلها ، وحبسها زوجها فى بيت وحدها ، وعاش

مع زوجته الجديدة فى بيت آخر . .

تذكرت الزوجة الحزينة العاقر ما جرى لأختها المسكينة التى صارت مجنونة ، ثم خطر لها خاطر . . قالت فى نفسها :

« لماذا لا أذهب إلى الفقيه ؟ . . ألا يقولون إنه يفعل كل شىء ؟ وإنه يولد اللاتى لا يلدن ! »

وذهبت الزوجة العاقر الحزينة إلى الفقيه ، وحكت له حكايتها ، وأعطته البياض . فوصف لها الفقيه وصفة قال إنها مجربة ولا تخيب أبدا . . وصف لها أن تأتى كل يوم بجرو كلب وتشويه وتعلقه حتى يبرد ثم تأكله ، وتستمر على ذلك سبعة أيام . .

وقال الفقيه للمرأة أنها ستشعر فى اليوم السابع بالجنين فى أحشائها .

وعملت الزوجة العاقر الحزينة بما وصفه لها الفقيه ، فكانت تحضر الجرو الصغير وتشويه وتعلقه وتتركه حتى يبرد .

ولكن زوجها كان كلما رأى اللحم معلقاً أنزله وأكله . . وفى نهاية اليوم السابع شعر الرجل بالجنين فى بطنه . . وكبر الجنين ، وتحرك فى بطن الرجل . . فحزن أشد الحزن واحتار فى أمره .

ثم ذهب إلى الفقيه لينقذه من بليته . فكان الفقيه يقرأ ويدعو له . . ومكث على ذلك عشرة أيام . وكان كلما دعا الفقيه للرجل بالخلاص نزل الجنين من مكانه إلى أسفل شيئاً فشيئاً . . حتى بلغ ساق الرجل فى اليوم العاشر .

وفى الصباح المبكر خرج الرجل فى خفية حتى لا يراه أحد فيلاحظ تضخم ساقه ، وراح يمشى ، ويمشى ، ويمشى . . إلى أن وصل إلى أرض بعيدة يعيش فيها الطير العجمى المسمى بالحدارى . وجلس بجوار شجرة هناك ، وتناول سكينه وفتح بها ساقه ، فخرجت منها بنت جميلة غاية فى الجمال !

تأمل الرجل هذه البنت ، وشعر نحوها بالعطف والحب ، وهم بأن يأخذها معه ، ولكنه خشى الملامة والعار . ثم استقر رأيه على أن يتركها لرحمة الله ، فصنع لها فراشاً من الأعشاب وأرقدها عليه ، وانصرف عنها وهو يبكى أشد البكاء .

مسكينة هذه البنت ، فقد تركها الرجل وحدها فى الخلاء ولا أحد هناك يقوم بشأنها ويرعاها ، وقد ينقض عليها وحش يفترسها . ولكنها بنت صغيرة ضعيفة بريئة ، وعناية الله لا تتخلى عن الضعفاء والمساكين وخصوصاً إذا كانوا أبرياء لم يرتكبوا ذنباً يستحقون عليه العذاب .

جاء الطير الحدارى ورأى البنت الجميلة على فراش العشب الأخضر ، والطير الحدارى طير جميل الشكل منقاره أخضر ، وهو طيب القلب جداً ، ولهذا فإنه أول ما رأى البنت الصغيرة الوحيدة أشفق عليها ، وفكر فى أن يأخذها بين جناحيه إلى عشه حيث يربيها ويطعمها ويسقيها . ثم تأمل الطير الحدارى محاسن البنت فأعجب بها وأحبها ، وقال فى نفسه : « عندما تكبر سأتزوجها »

كم هو طيب ونبيل ذلك الطير الحدارى !

وطار بها فى الفضاء إلى أن وضعها على عش جميل فرشه لها بالعشب الأخضر على نخلة باسقة ، واستلقت البنت على الفراش الأخضر وهى تنظر إلى الطير الحدارى نظرة شكر وامتنان . ومن ذلك الوقت صار اسمها « الحدير » .

نمت الحدير وكبرت ، ونما معها وكبر حب الطير الحدارى لها . ولم يكن هناك من هو أسعد منه حين يعود إلى العش فوق النخلة ويرى الحدير وهى تأكل من بلح النخلة ما لذ لها وطاب ، وتنظر إليه بشكر وحنان .

ولم يكن الطير الحدارى وهو فى تلك الحال يعلم ما يخبئه له الغيب وإن الدنيا لا تدوم على حال . ففى ذات يوم من الأيام نزل تحت النخلة جماعة من الشبان ربطوا خيولهم وجلسوا يستريحون ، وكان فيهم شاب سمح جميل اسمه « ابن النمير » ما أن رأته الحدير حتى فتنت به . وجعلت الحدير تساقط البلح على ضيفانها وهم لا يشعرون بها ولا يرونها ، وكانت ترمى بالبلح الناضج الحلو أمام الشاب السمح ابن النمير . . ولحظ ابن النمير ذلك ، فرفع رأسه ، فرأى الحدير ، ففتن بها ولكنه غض بصره حتى لا يلحظه أحد من أصحابه .

نزع ابن النمير خاتمه من أصبعه فى خفية وألقى به تحت النخلة دون أن يشعر رفاقه عندما هموا بالانصراف . وبعد أن قطعوا مسافة طويلة

استوقف ابن النمير أصحابه قائلا لهم :

– يا جماعة ! لقد نسيت خاتمى تحت النخلة ، وأنا راجع لإحضاره

ولما أبدوا رغبتهم فى أن يرافقوه حلف ألا يصحبه أحد . وعاد وحده إلى النخلة حيث وجد الحدير تبكى لفراقه . . فحملها معه على جواده ليرجع بها إلى أهله ويتزوجها .

وبينما كان ابن النمير والحدير سائرين والجواد ينهب بهما الطريق هبط عليهما الطير الحدارى من أعلى الجو ، ففزعت الحدير ، وجرد ابن النمير سيفه ، ولكن الطير الحدارى قدم له بمنقاره الخاتم الذى نسى أن يأخذه من تحت النخلة . .

شكر ابن النمير الطير الحدارى ، كما شكرته الحدير وهى تنظر إليه نظرة شكر وامتنان .

كم هو طيب ونبيل ، ذلك الطير الحدارى ! . .

فاطمة السمراء

كانت فاطمة السمراء تعيش مع أهلها فى قرية تطل على النيل ، والقرية كلها تتحدث عن جمال فاطمة السمراء وسحرها . . وشباب القرية مفتونون بحسنها، أما أترابها من بنات القرية فقد دبت عقارب الغيرة والحسد فى نفوسهن . . واجتمعن ذات ليلة يحبكن خيوط مؤامرة يخرجن بها فاطمة من القرية ، فيرحن القرية من فتنتها ، ويرحن أنفسهن من عذاب الغيرة . .

وجئن إليها فى الصباح وقلن لها :

– هيا نخرج يافاطمة إلى النيل فنغسل أيدينا ووجوهنا بمائه ، ونجمع البلح من تحت أشجار النخيل . .

– إن كل أملى أن أخرج معكن للنيل ولكن أبى لا يسمح لى بذلك . . .

– تعالى معنا ونحن نستأذن لك من أبيك . .

وكان أبوها يمنعها من الخروج خوفاً عليها من عين الحسود ومن أن يتعرض لها أحد بسوء . ولكن البنات ألححن عليه حتى أذن لها . فرحت فاطمة بالخروج لأنها كانت شبه مسجونة . وأحضرت سلتها والسرور يلمع فى عينيها والابتسامة تسطع على ثغرها . . .

وسار الفتيات فى طريقهن إلى أشجار النخيل على شاطئ نهر النيل ، ولما وصلن إلى النخيل جمعن البلح من تحته وجلسن يسترحن ويأكلن . . حتى نفد البلح الذى جمعنه . فطلبت البنات من فاطمة أن تتسلق نخلة محملة بالبلح الناضج الحلو . . وتضرب على عراجينه لينزل ، فتسلقت فاطمة النخلة وضربت العراجين ونزل البلح ، فملأ الفتيات سلالهن وتركن سلة فاطمة فارغة . فلما نزلت ولم تجد الا البلح المتعفن الجاف غضبت وتسلقت النخلة مرة ثانية ، وهزت العراجين ونزلت فجمعت البلح وملأت سلتها ، وكانت الفتيات قد تركنها على النخلة ومشين مسرعات حتى حتى لا تراهن وتتوه فى الطريق . . ولكنها لحقتهن من بعيد فأسرعت حتى وصلت إليهن . .

ووقف الفتيات ومعهن فاطمة السمراء عند بركة عميقة بالقرب من أشجار النخيل ، فقالت إحداهن توجه كلامها إلى باقى الفتيات : هيا نلقى بأساورنا فى هذه البركة ثم ننزل بها ونستحم ونجمع الأساور ونصيد السمك الذى يكثر عندما يرى الأساور . .

وأسرعت البنات كل منهن تلقى ما بيدها . . فألقت فاطمة أساورها فى أعماق البركة ، ولم يلق باقى البنات إلا الحجارة . . ثم ضحكن عليها . . ووقفت تبكى . . وسألنها : هل ستواصل السير معهن إلى القرية ؟ . .

رفضت فاطمة السمراء أن تعود مع البنات إلى القرية خوفاً من أبيها وأمها



عندما يعلمان بأنها أضاعت أساورها . . وظلت وحدها عند البركة تبكى وتنتحب .

وبينما هى كذلك رأت سحابة كثيفة من الدخان . . ففزعت ، وزاد فزعها عند ما رأت السحابة تتحول إلى عفريت مخيف . . قال لها فى صوت أجش :

— أتتزوجينى إذا أخرجت لك أساورك من البركة ؟

— لا . . لا . . أنت عفريت ! . .

ورأت يده تطول وتطول . . حتى تصل إلى أعماق البركة ،

وهو واقف فى مكانه . . وأخرج الأساور . ثم أخذ فاطمه إلى كهف بعيد عن أشجار النخيل .

جاء الليل على القرية ولم تعد إليها فاطمة السمراء فاتنة الشباب ومحبوبة الجميع ، وسأل والداها الفتيات اللاتى كانت معهن ، فقلن أنها دخلت معهن القرية ولا يعلمن إن كانت رجعت إلى منزل أهلها أم ذهبت إلى مكان آخر . فحزن أبوها ، وبكت أمها ، واهتمت القرية جيمعها بالبحث عنها . ماعدا لداتها من الفتيات فقد سررن باختفائها ونجاح مؤامرتهن فى إبعادها عن أنظار المفتونين بها حتى ينلن ما يتطلعن إليه من هذه الأنظار . .

وجدّ أهل القرية فى البحث عن فاطمة السمراء فى كل مكان يظنونها ذهبت إليه . فلم يعثروا لها على أثر . وخيم على القرية جو قاتم من اليأس والحزن .

وكان من عادة العفريت أن ينام سنة ويستيقظ سنة . وتصادف أنه خطف فاطمة السمراء فى أول السنة التى يظل فيها يقظاً ، فبقيت فاطمة فى كهف العفريت سنة كاملة مستسلمة لقضاء الله ، وهى تأمل أن تجد الفرصة للخلاص من ربقة العفريت والعودة إلى أهلها وعشيرتها فى القرية . .

وجاءت الفرصة عند ما جاءت السنة التى ينام فيها العفريت . . فهربت من الكهف وتركته نائماً وعادت إلى أهلها فرحة وإن كانت

خائفة من العفريت ، متوقعة أن يجيء إليها بعد أن يستيقظ فى أى شكل من الأشكال . . ولكنها كانت تقول فى نفسها : لما تفوت السنة يحلها الحلال . .

وصلت فاطمة السمراء إلى القرية فى ليلة من الليالى القمرية البيضاء ، وتسامح الناس الخبر ، فذهبوا مهنئين ، واجتمعوا مسرورين ، وذبحت الذبائح ، وأقيمت الولائم والأفراح ، وعمت الفرحة جميع القلوب إلا تلك القلوب التى سودها الحسد وأكلها الغيرة . . قلوب البنات أتراب فاطمة . .

لما سمع أولئك البنات حكاية فاطمة السمراء مع العفريت ابتسمن فى خبث . . وأشعن فى القرية أن فاطمة أصبحت محبوبة العفريت ، وصارت بذلك فى حمايته ، وأى رجل يفكر فى الزواج منها سيلقى حتفه على يد العفريت . .

وكان من بين الشبان الهائمين بحب فاطمة ابن عمها « عنتر » الشجاع الذى كان عازماً على زواجها ، ولما سمع عنتر بحكاية العفريت ازداد حبه واشتعلت حماسته وأصر على زواج فاطمة بنت عمه وحمايتها من العفريت . .

وتزوج عنتر فاطمة ، وفرحت القرية بهذا الزواج فرحاً يخالطه شيء من القلق والخوف على عنتر وزوجته فاطمة السمراء . .

وذات يوم قالت فاطمة لزوجها إنها تريد أن يشترى لها عقداً جديد

من السوق ، وذهب عنتر لشرائه، فوجد عقداً جميلا لم ير له نظيراً من قبل ، فأحضره لزوجته وهو يتهلل فرحا . فلما رأته لم تسترح لمنظره ، ولكنها قبلته وأظهرت السرور لزوجها حتى لا يخيب أمله فى إدخال السرور على قلبها . .

وعندما لبست فاطمة العقد ، وكان زوجها غائباً ، تحول العقد إلى عفريت . . . نفس العفريت . . .

واختفت فاطمة السمراء . . وجاء زوجها فلم يجدها ، وبحث عنها فلم يعثر لها على أثر ، فعرف أن العفريت قد خطفها . وراح عنتر يبحث عن الكهف الذى كان يعرف موقعه وأوصافه من زوجته ، حتى وصل إليه ، ودخله ، فوجد فاطمة نائمة بجانب العفريت ، فاستل سيفه ، ودخل مع العفريت فى معركة حامية استعمل فيها ما يجيده من الحيل والضرب بالسيف ، فلم يفده ذلك شيئاً لأن السيف لم يكن يقطع فى جسم العفريت . . ثم وجه إليه الضربة الأخيرة وهو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » فاحترق العفريت وصار رماداً تذروه الرياح . . .

وعادت فاطمة السمراء مع زوجها عنتر الشجاع الحبيب ، وقد زال مصدر قلقها إلى الابد . وعاش الزوجان الحبيبان فى تبات ونبات وخلفا صبياناً وبنات .

كسلا والشاطر حسن

قالت الجدة لأحفادها :

الليلة أحكى لكم حكاية «كسلا والشاطر حسن»وهى حكاية حصلت فى السودان من زمن بعيد . . .

كان لقبيلة الجعلية عمدة اسمه نعمان يحبه أفراد القبيلة لأنه كان يسهر على راحتهم ويعمل لمصلحتهم ، وكان متضامنا مع القبائل العربية الأخرى ، فكانت قبيلة الجعلية هى وبقية قبائل العرب صفاً واحداً ضد من يحاول أن يعتدى عليهم . .

وجار على القبيلة الزمان ، فمات نعمان ، ولم يترك من الأولاد غير ولد صغير فى السادسة من عمره ، وهو الشاطر حسن . . وأصبح العمدة بعد نعمان أخوه عثمان وكان عثمان على عكس أخيه نعمان . . كان ظالماً سيئ السلوك ، جلب على القبيلة المتاعب وأوقعها فى أزمات وجرها إلى المنازعات مع القبائل الأخرى . .

وكان من سوء حظ الشاطر حسن أن عمه عثمان تولى تربيته ، إذ كان يعامله معاملة قاسية لا رحمة فيها ولا حنان ، وكان الشاطر حسن ذكيا شجاعاً كريماً يجيد ركوب الخيل ، إذا خرج مع فتيان الحى للصيد صاد أكثر مما يصيدونه على رغم أنه كان أصغرهم .

ولما كبر الشاطر حسن وصار شاباً قوياً جعل هوايته الصيد والفروسية . وذات يوم خرج للصيد مع فتيان الحى ، وجالوا جولتهم فى الصيد، ثم رأوا غزالة لها قرنان أحدهما ذهب والآخر فضة ، فأشار الفتيان إلى تلك الغزالة وقالوا للشاطر حسن : إذا كنت حقيقة ماهراً فى الصيد فصد هذه الغزالة . .

انطلق الشاطر حسن بحصانه وراء الغزالة ، حتى مر بحى أراد أن يخترقه ولكنه رأى « ماشطة » تمشط فتاة راعه جمالها ، فوقف يتأملها . . فنظرت إليه الماشطة وقالت له :

« لماذا تنظر هكذا ؟ . . أبعد عن "كسلا" فهى مخطوبة لابن عمها وسيتم زواجهما غدا » . .

فنظر إليها الشاطر حسن وقال كأنه يحدث نفسه : « إذا تزوجها ابن عمها فإنى أقطع ذراعى » . .

ولكز حصانه وانطلق بعيداً عن الحى ، وكانت الغزالة قد أفلتت منه بسبب كسلا ، وقال فى نفسه : « كسلا هى غزالتى وهى صيدى الثمين » وبات بجوار صخرة حتى الصباح ، ثم نهض وقصد إلى سوق الحى ، فأحضر بعض الطعام وأكل وظل فى مكانه حتى أقبل الليل . . .

وفى المساء ركب حصانه واتجه إلى الحى ، فسمع الغناء والطبل فى العرس ورأى كسلا ترقص وتعطى « الشبال » لمن يأتى من الشباب

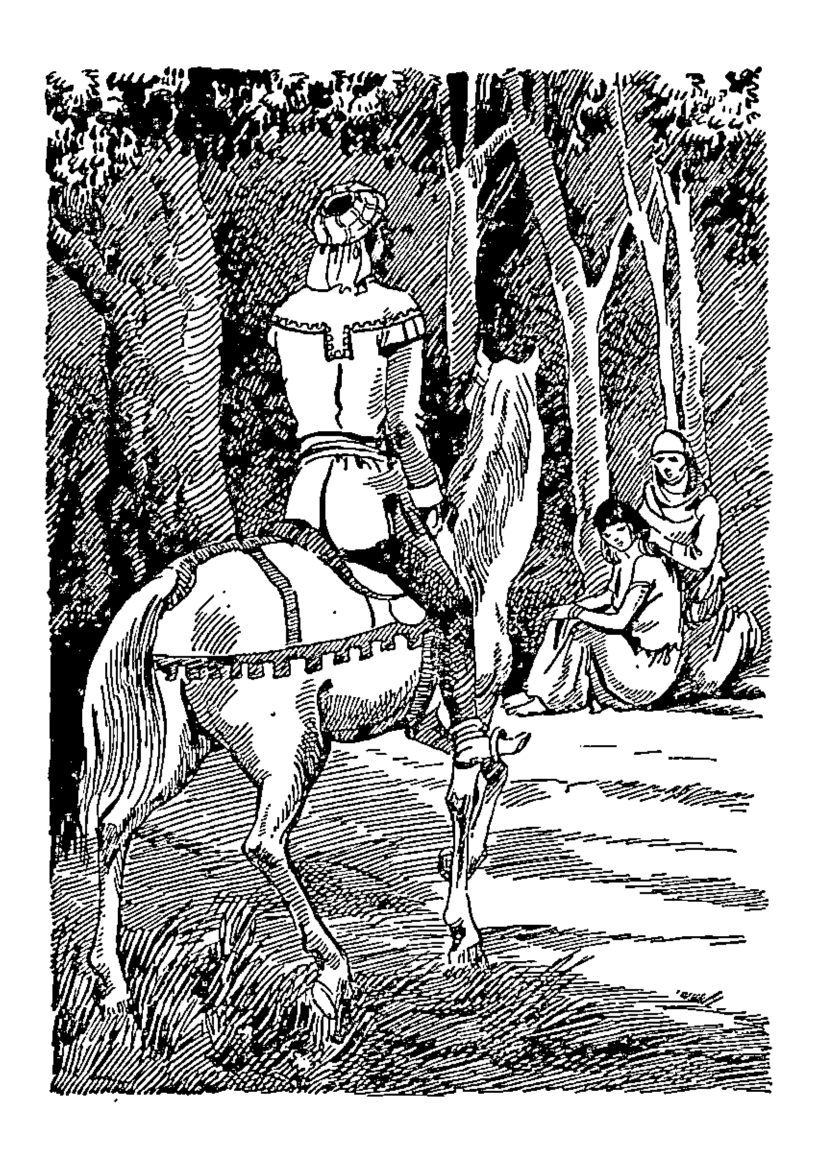
ويقترب منها : وذلك بأن تميل نحو الشاب حتى تمسه بشعرها ثم تعتدل وتستمر فى رقصتها .

وكان الشاطر حسن قد نزل عن حصانه واقترب من كسلا وحصانه قريب منه ، فمالت نحوه لتعطيه الشبال . . وفى لمح البصر حملها وقفز بها إلى ظهر الحصان وانطلق . . فانطلق وراءه كل شبان الحى ، ولكنه ذهب مع الريح . .

وتزوج الشاطر حسن كسلا ، وقد أحبته كما أحبها ، لما لمست شهامته وصفاته النبيلة ، وكان الشاطر حسن يعيش مع زوجته فى بيت عمه عثمان العمدة الظالم القاسى الذى لا يرحم ، الطماع الذى لا يرى عند أحد نعمة إلا وسلبها منه . . فإنه ما كاد يرى كسلا حتى فتن بجمالها وعقد العزم على أن يتخلص من زوجها الشاطر حسن ويتزوجها . .

جمع عثمان بعض الشبان الذين يشبهونه فى فساد النفس والميل إلى الغدر ، ودبر معهم مكيدة لقتل الشاطر حسن ، وقال لهم : إذا أستطعتم أن تقتلوه أو تتخلصوا منه بأية طريقة بحيث لا يعود إلى الحى أبداً فإنى سأعطيكم من الذهب ما تطلبون . .

وكان هؤلاء الشبان المتآمرون يتظاهرون بالصداقة للشاطر حسن . . وفى يوم من الأيام خرجوا معه للصيد ، ومروا ببئر عميقة ، فوقفوا عندها ، وقال واحد منهم كأنه يتحدى : الشجاع من ينزل فى هذه البئر إلى القاع ويخرج منها . فانبرى الشاطر حسن من بينهم ونزل إلى أعماق



البئر ، فأسرعوا بوضع جلد ناقة قوى على فوهة البئر ووضعوا فوقه حجارة كبيرة حتى لا يستطيع زحزحتها . . ولكن الشاطر حسن استطاع بقوته وحسن تصرفه أن يزحزح الحجارة ويخرج من البئر . وكان الشبان على مقربة منه ينتظرون ماذا سيصنع ، فلما رأوه خرج أتوا إليه يتظاهرون بالمزاح والضحك وأنهم كانوا يختبرون شجاعته وينوون أن يزيحوا غطاء البئر ويخرجوه إذا لم يستطع . . فصدقهم لطيبة قلبه وصفاء نفسه . .

ولما رجعوا وقابل الشبان العمدة عثمان حكوا له ما حصل ، فلامهم على أنهم مكنوه من الخروج من البئر ، ثم فكروا فى مكيدة أخرى . .

فى صباح اليوم التالى خرج الشاطر حسن والشبان إلى الصيد ، وكان معهم حبل متين . ثم رأوا بقرة وحشية فصادوها ، وقال واحد منهم : الشجاع من يستطيع تخليص نفسه من هذه البقرة بعد ربطه بها . فقال الشاطر حسن على الفور : أنا . . .

فربطوه إلى البقرة بالحبل المتين وأحكموا الربط ، ثم تركوه وابتعدوا ينظرون . . وحاول الشاطر حسن أن يتخلص من هذا الرباط فلم يستطع ، فلما رأوه كذلك تسللوا من بعيد وعادوا إلى الحى يزفون البشرى إلى عمه عثمان ، فقالوا له : إنه سيظل مربوطاً حتى يموت من الجوع والعطش .

واطمأن عثمان لذلك ، وأخذ يعد العدة لزواج كسلا ، وقال لها إن الشاطر حسن فقد ولا يعلم له مكان ، وإنه يريد الزواج منها ،

فرفضت ، وصار يعيد عليها طلب الزواج وهى ترفض . . وكانت تنتظر عودة الشاطر حسن ، ولكنه لم يعد ، فخرجت هائمة على وجهها تبحث عنه . . وبينما هى سائرة رأت قصراً فخماً ، ولما قربت منه وجدت ملابس فلاح قديمة فى ركن منعزل ، فأخذتها ولبستها ، وسارت فى حديقة القصر وهى متخفية فى هيئة فلاح ، فرآها صاحب القصر فسألها عن حالها وهو يعتقد أنها رجل فلاح ، فقالت له : أنى أريد أن أعمل فى خدمتكم ، فقبلها .

وكانت كسلا تخرج لغسيل الأوانى فى بركة على مسافة من القصر ، وإذا لم تجد أحداً هناك تخلع ملابس الفلاح وتظهر فى ملابسها الحقيقية والذهب يحلى جسمها الجميل . .

وفى ليلة من الليالى المظلمة سمعت صوتاً يقول فى ترنيم حزين :

وكانت طلعت الثريا وجهدت تشوف عينى
يا كسلا بنت العرب مين يجيبك لى ؟

فعلمت أن صاحب الصوت يقول : إذا طلع نجم الثريا واجتهدت عينى أن ترى فأى شيء يا كسلا يا بنت العرب يأتى بك إلى ؟ وتأكدت أن صاحب الصوت هو الشاطر حسن، واختفى الصوت . . وبحثت فى الظلام فلم تجد شيئاً يدل عليه . .

كان الشاطر حسن منذ ربطه بالبقرة الوحشية يسير مع هذه البقرة

فى غدوها ورواحها ولا يستطيع منها فكاكا ، يلتقط بعض ما تأكل من النبات ، ويشرب من البركة عندما تأتى إليها لتشرب ، وكان فى الليلة التى سمعت فيها كسلا صوته قد أتى مع البقرة إلى البركة كالعادة كل ليلة .

وحرصت كسلا كل الحرص على أن تذهب إلى البركة فى الليلة التالية فى نفس الموعد ، وانتظرت مجىء الليل بفارغ الصبر . . وذهبت، وجلست عند البركة وكلها آذان تسمع وعيون ترى . . وطلع نجم الثريا فى السماء فأرسل بصيصا إلى الأرض . ثم رأت شبحاً يقترب من البركة ، فلما صارت قريبة من الشبح تبينت فيه البقرة والشاطر حسن مربوطاً بها ، فأسرعت إلى الأوانى التى جاءت بها لتغسلها وأخذت من بينها سكيناً وقطعت الحبل ، والبقرة تشرب من الماء ، فأصبح الشاطر حسن طليقاً ، فتقدم من الفلاح . . وكانت كسلا لم تخلع ثياب الفلاح — وبجعل يشكره ، ولكنه ذهل عندما رأى الفلاح يخلع ملابسه ويخرج عن تنكره ويتحول إلى . . كسلا . . زوجته الحبيبة فى ثيابها الحقيقية والذهب يحلى جسمها الجميل . . .

وعاد الشاطر حسن وزوجته إلى الحى وقتل عمه عثمان الظالم القاسى ، وصار هو عمدة القبيلة ، وسار سيرة أبيه نعمان ، يسهر على راحة عشيرته ويعمل لمصلحتهم ويعيد علاقات المودة مع القبائل الأخرى . .

أولاد السمكة

كان للملك «ابن النمير» زوجة يحبها حبًّا شديداً ويؤثرها بعطفه وعنايته مما جعل زوجاته الأخريات يغرن منها ويتفقن على تدبير المكايد لها والعمل على تنفير زوجها منها . .

أظهرت الزوجات الضرائر ودهن وحبهن الزائف للزوجة المحبوبة ، وكانت هي سمحة النفس طيبة القلب فانخدعت بما يبدين لها ، ووثقت بهن إلى حد أنها صدقت ما زعمنه من أنها ولدت .. مكنسة !

فقد أحطن بها فى أثناء ولادتها ، وأخفين عنها مولودها الحقيقى وأرسلنه مع إحدى الجوارى لتلقيه فى البحر ، وأحضرن مكنسة ولففنها وادعين أنها المولود العزيز . . وأبلغن زوجهن الملك بذلك ، فحزن ولكنه تذرع بالصبر . .

وولدت الزوجة الطيبة مرة ثانية ، فتكررت المأساة إذ ألقى المولود الحقيقى فى البحر ، وأتى بحجر كان هو المولود المزعوم !

وهكذا استمرت الزوجات الضرائر فى التدبير السيئ ضد الزوجة الطيبة ، حتى بلغ المواليد الضحايا الذين ألقى بهم فى اليم خمسة : بنتاً وأربعة بنين .

اعتادت سمكة كبيرة أن تأتى عند الشاطئ الذى يلقى منه الأطفال

الأبرياء ، فكانت السمكة تبتلع كل طفل عند إلقائه ، حتى ضم بطنها الكبير الأولاد الخمسة ، وعاشوا فيه آمنين من كيد الكائدين وغدر الغادرين ، يأكلون مما تأكله السمكة وتختزنه فى بطنها .

وظل الأطفال فى بطن السمكة إلى أن شاء الله أن يخرجوا إلى النور على يد صياد اصطادها وباعها فى المدينة لأحد الفقهاء ، وكان الفقيه فقيراً وله أولاد كثيرون يكد فى سبيل الحصول على رزقهم ، وقد فرح بالسمكة الكبيرة التى سيشبع منها أولاده وخاصة أنه اشتراها بثمن زهيد .

ذهب الفقيه بالسمكة إلى بيته ، ففرح بها الأولاد فرحاً عظيماً ، والتفوا حولها يداعبونها مسرورين زائطين . وقد وضعتها زوجة الفقيه فى طست كبير مملوء بالماء .

ثم فتحوا بطن السمكة . . فهالهم منظر الأطفال وهم يخرجون منه . . وصاحت الزوجة فى فزع :

— ما هذا يا ربى!

— فقال الزوج :

— هذا فضل من الله .

— فضل من الله ! هل تنقصنا العيال ! !

— اسكتى يا امرأة ، واستغفرى الله . إن الله يرزقنا وإياهم .

وفعلا تيسرت أسباب الرزق للفقيه وانهالت عليه الخيرات من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم . وفرح هو وزوجته بالأطفال الذين أتى الخير

على قدومهم .

وكبر الأولاد الأربعة ، وكبرت البنت معهم ، وقد سماها الفقيه فاطمة ، وكانت ذات حسن وجمال . وعاشوا زمناً فى سعادة واطمئنان ، ولكن حدث يوماً أن تخاصم أكبر الأولاد مع بعض أترابه الذين يلعب معهم ، فقال له هذا : يا ابن السمكة !

وصار الأولاد الآخرون يقولون لهم كلما أرادوا أن يغيظوهم ويعيروهم :

— يا أولاد السمكة !

وذات يوم أتى الولد الأكبر إلى الفقيه باكياً ، وتوسل إليه أن يخبره بسر هذه التسمية ، وهل هم حقيقة أولاد سمكة ؟ ! فما كان من الفقيه إلا أن أخبره بالحقيقة . فأقسم الولد أن يذهب بإخوته بعيداً عن أعين هؤلاء الذين يحتقرونهم ويذلونهم إلى حيث يبدأون حياة جديدة .

سار الأولاد الخمسة حتى وصلوا إلى غابة كثيفة الأشجار ، فنزلوا بها ، وأنشأوا لهم كوخاً من ورق الأشجار وفروعها . وكان الإخوة البنون يذهبون إلى الصيد ، أما البنت فكانت تمكث فى الكوخ تهيئ لهم الطعام وترعى ما استطاعوا تأنيسه من الطيور والحيوان ، وكانت إذا خرجت تتنكر فى زى رجل عجوز ، وكانت كثيراً ما تذهب إلى الغدير القريب لتسقى حيوانها وتملأ جرتها بالماء ، وكانت أحياناً تتجرد من زيها ، فيبدو جمالها الفاتن ، وتنزل إلى الغدير لتستحم فيه ، فتبدو كالزهرة البرية نضرة جميلة لا تشوبها شوائب المدنية المصطنعة .

وذات يوم رآها عبد من عبيد السلطان ، الذين اعتادوا الصيد فى مجاهل تلك الغابة البعيدة ، وقد تخلت عن زى التنكر ، فسحره جمالها ، لدهوشته لم يستطع أن يكلمها ، فذهب إلى سيده وأخبره بأمرها . فأراد السلطان أن يتحقق من صحة الأمر ، فأرسل عبداً آخر لهذا الغرض ، وكان هذا العبد لا يحسن النطق فزاده جمال الفتاة تلعثما فى الكلام . ولما عاد لم يفهم منه السلطان شيئاً ، فقرر أن يذهب بنفسه ليتحقق مما قاله العبد الأول .

ذهب السلطان إلى الغابة واختفى وراء شجرة كبيرة قريبة من الغدير . وظل مختفياً يرقب الطريق حتى رأى رجلا عجوزاً مقبلا يتجه نحو الغدير ، فلما وصل إليه تجرد من زيه ، وظهر على حقيقته فتاة رائعة الجمال هى فاطمة . .

ونزلت فاطمة إلى الغدير لتستحم ، وابتعد السلطان عنها حتى خرجت ولبست ثيابها وتزيت بزى الرجل العجوز ، وعندئذ تقدم منها وحياها ولم يظهر لها أنه عرف حقيقتها .

ثم عرض السلطان على « الرجل العجوز » أن يعمل بستانياً فى قصره فقبل قائلاً :

— إننى يا ملك الزمان صاحب عيال ، وأولادى يعيشون فى كوخ بالغابة ولا بد أن أعود إليهم آخر النهار وأقضى الليل معهم .

وقال السلطان : لك ذلك أيها البستانى العجوز .

وجعلت فاطمة تعمل فى بستان السلطان فى شكل الرجل العجوز ، وكان السلطان يذهب إليها كثيراً ويحادثها متلطفاً معها ويغمرها بالهدايا التى كانت تعود بها إلى إخوتها فى المساء . وكان يشعر نحوها بالحب ولكنه يكتم عواطفه حتى تحين الفرصة .

وكان السلطان يرقب فاطمة من نافذة القصر وقت الظهيرة ، وعند ما تجد نفسها منفردة فى البستان ولا أحد يراها تتجرد من زى الرجل العجوز وتبدو فى جمالها ومحاسنها . فيهم بأن ينزل إليها ويفاجئها ، ولكنه يضبط نفسه حتى لا يخجلها .

واستمر الحال على ذلك حتى زاد الوجد بالسلطان ، فسار وراءها ذات يوم متخفياً بحيث لا تراه ولا تعرفه وهى عائدة إلى الكوخ فى الغابة ، حتى وصلت إلى إخوتها الذين كانوا ينتظرونها . وبعد برهة أقبل عليهم وحياهم ، فردوا تحيته وأكرموه ، ثم عرفهم بنفسه ، وعرفته فاطمة فدهشت لمجيئه ، ولكن الأمر انكشف لها عند ما سمعته يخطبها من أخيها الأكبر ...

وانتشر نبأ خطبة السلطان بالمدينة وعمت الأفراح أهلها إلا شخصاً واحداً لم يرحب بهذا النبأ . . هى تلك الببغاء التى كانت تعمر أحد أركان البيت . . لقد أخذت تردد كلما رأت السلطان قادماً :

« ابن النمير يريد أن يتزوج ابنته » !

ولم يعر السلطان ذلك التفاتاً أول الأمر ، ولكن لما تكرر ذلك القول من الببغاء انتبه السلطان واهتم . . فسأل الببغاء عما تقصده بهذه العبارة التى

ترددها ، فأخبرته الببغاء بأن خطيبته ما هى إلا ابنته . .

ذلك أن السلطان ما هو إلا ابن النمير زوج المرأة الطيبة المسكينة التى كادت لها ضراتها فزعمن أنها تلد مكنسة وحجراً . . . إلخ ، واستطعن بذلك أن ينفرن ابن النمير منها ويحملنه على هجرها وإهمالها ، فلما بلغن ما أردنه بكيدهن ظهرن لها على حقيقتهن وجعلن يعيرنها ، مرة بأنها « أم مكنسة » وأخرى بأنها « أم حجر » . . إلخ . ولما لم تجد لها صديقاً أو أحداً تركن إليه خرجت من القصر ذات ليلة ولم تعد .

ولما علم الولد الأكبر بقصة أمه تذكر امرأة كان يراها هائمة على وجهها فى الغابة ، وكان يسمعها أحياناً تردد :

« يابنتى يا مكنسة . . يا ابنى يا حجر ! » .

وأدرك الآن سر نظرتها الحنون إليه ، وسر شعوره نحوها بالعطف والإشفاق حتى كان يذهب إليها بالطعام وهو لا يعلم بأنها أمه .

تذكر الولد الأكبر ذلك ، فراح يبحث عن أمه فى الغابة حتى وجدها ، وعاد بها إلى قصر والده ابن النمير .

فسر ابن النمير سروراً عظيماً بعودة زوجته الطيبة ، وندم على ما كان منه من إهمالها وهجرها .

واجتمع شمل الزوجين وأولادهما وفرح الجميع بذلك ، وأخذت الببغاء تغرد صائحة كلما رأت ابن النمير :

« يا ابن النمير . جاك الخير . . »

الفهرس

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠